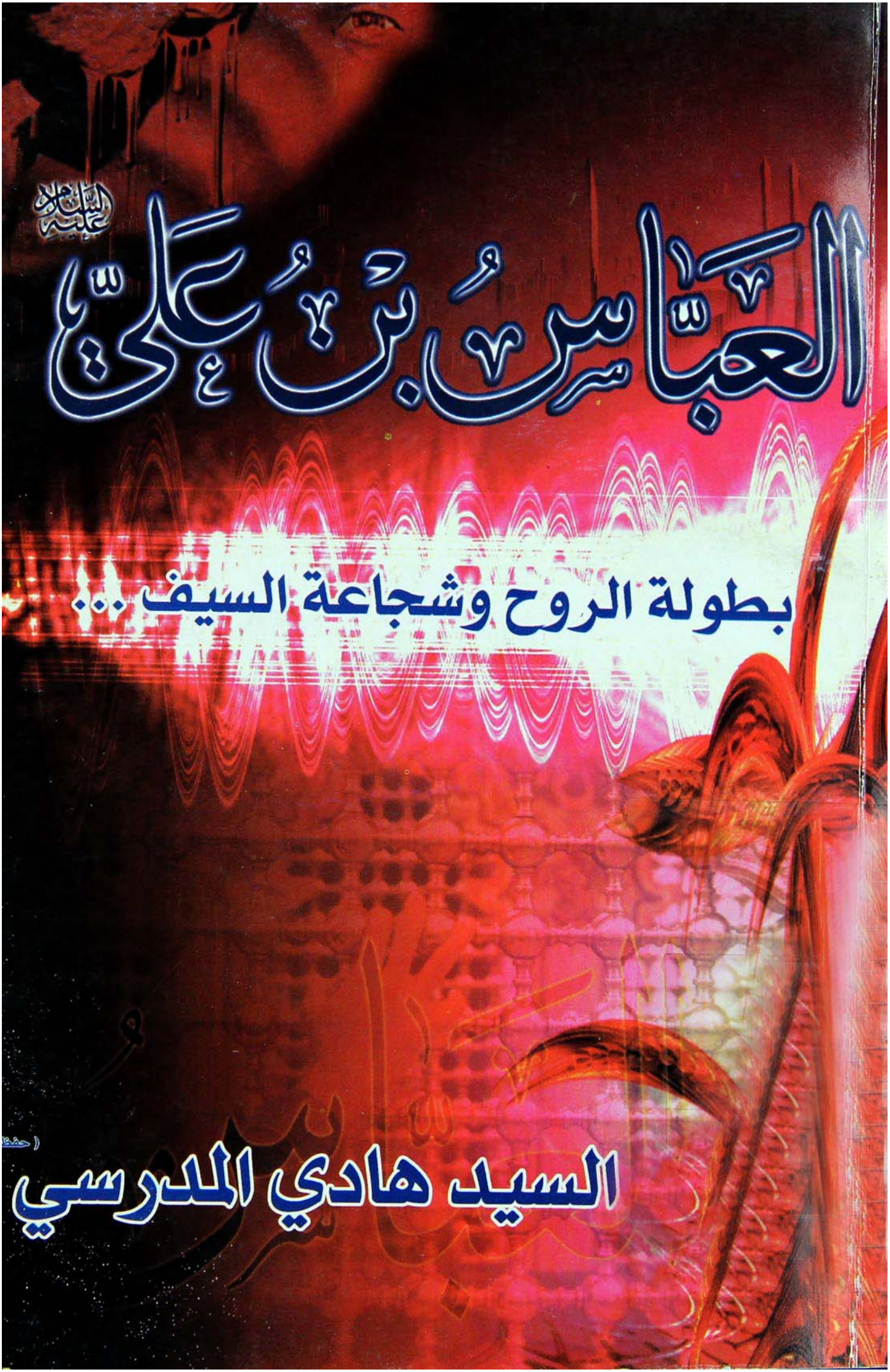
العباس بن علي عليه السلام
بطولة الروح وشجاعة السيف ..
السيد هادي المدرسي

www.haydarya.com

العبّاسُ

بُطولة الـروح
و شَجاعَة السَيف

هادي المدرّسـي

بِسمِ اللهِ الرَّحمنِ الرَّحِيمِ

الحَمدُ لِلّهِ رَبِّ العٰلَمِينَ

الرَّحمَنِ الرَّحِيمِ

مٰلِكِ يَومِ الدِّينِ

إِيَّاكَ نَعبُدُ وَ إِيَّاكَ نَستَعِينُ

اهدِنَا الصِّرٰطَ المُستَقِيمَ

صِرٰطَ الذِّينَ أَنعَمتَ عَلَيهِم

غَيرِ المَغضُوبِ عَلَيهِم وَ لاَ الضَّالِّينَ

براعة الاستهلال..

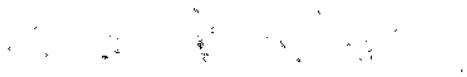

١

لقد ضحّى بكفّه حتى لا يُضحّي بكفّ الحقيقة..
وضحّى بعينه حتى لا يُضحّي بعين البصيرة..
وضحّى برأسه حتى لا يُضحّي برأس الإيمان..

٢

كان العبّاس عليه السلام بمفرده يمثّل امبراطوريّة الخير، في مواجهة عدوّه الذي كان يمثّل امبراطوريّة الشرّ.

٣

كما كان علي عليه السلام معجزة رسول الله صلى الله عليه وآله. فقد كان العبّاس معجزة علي.. وكما تكرّر النبيّ في عليّ وفي سبطيه، فقد تكرّر عليّ في العبّاس.

٤

كان رجل المهمات الأصعب، في معسكرٍ كلّ مهماته كانت صعبة.

٥

لقد مزّق العباس عليه السلام تحت قيادة الحسين عليه السلام، كلّ خيوط العنكبوت التي نسجتها ايادي الجناة حول عقول الناس وضمائرهم.

٦

للعباس عليه السلام حضور يومي في حياة الملايين من الناس، وهو وسيلتهم في الحصول على الحوائج، وقدوتهم في البحث عن الغايات.

٧

كانت المعركة بين منطقين: منطق الذي ينظر الى الدنيا بعين الآخرة.. ومنطق الذي لا يؤمن بالآخرة اصلاً، وهي المعركة الممتّدة منذ ولادة هابيل، والتي ستستمر حتّى قيام المهدي..

٨

كانت عمليّة السقي هوايته..
ثم اصبحت رسالته..
وفي سبيلها تمّت شهادته..

٩

لا السيف الذي قطع يده..
ولا السهم الذي مزّق عينه..
ولا العمود الذي فلق هامته..
ولا كلّ محاولات التشويه التي طالت قضيّته، استطاعت ان تؤثّر على روحه الهائجة بالمثل، وان تؤثّر على فحولته العارمة ضد الطغيان.

١٠

لقد اشتمل العبّاس بالوفاء، واشتمل به الوفاء..
وتسربل بالأيثار، وتسربل به الإيثار..
وتخندق بالشّجاعة، وتخندقت به الشّجاعة..
لقد مثّل كلَّ الفضائل، فتمثّلت فيه كلُّ الفضائل..
وزادت قيمة جديدة في القيم اسمها.. العبّاس

١١

مع حضوره في التاريخ..
اصبح للملحمة حجم اوسع مما كان لها..
ومقاسات جديدة اكثر علوّاً، وسمواً، وارتفاعاً.

١٢

كان من علماء النّهاد..
ومن زهّاد العلماء..
وتلك واحدة اخرى من فضائله..

١٣

كما كان سيف الحسين اطول سيوف الحق في التاريخ..
فإنّ راية العبّاس كانت ارفع رايات العدالة فيه.

١٤

لقد تمسّك بجوهر الدين: طاعةِ الله..
وبجوهر الطاعة: عبادةِ الله..
فاتخذ الدّنيا مزرعة الآخرة، ودار ممرّ لا دار مقرّ.. ولذلك فانّ الموت في سبيل ربّه، كان اسهل عنده من شربة ماء بارد في ذلك اليوم الصائف.

١٥

يعود العبّاس في الليالي الحالكات، يطرق ابواب البيوت، ليقول للنّاس: إنّ من يخسر يديه في سبيل الحق، فسوف يعوّض عنهما بجناحين يطير بهما في الجنّة.. وإنّ من يخسر بصره في المجابهة مع الباطل، فسوف

يعوّض عنها ببصيرة نافذة تخرق حجب الأوهام..
وإنّ من يخسر قمّة رأسه في الدفاع عن الإيمان، فسوف يتربّع لا محالة، على رأس القمّة..

١٦

سبقته اعضائه الى الجنّة..
وتقطّعت أوصاله، قبل ان تنقطع انفاسه.
فاعطى لله تعالى يديه..
ثم عينه..
ثم هامته..
وبتلك الشّهادة المتميّزة، تحوّل من شخص الى شاخص..
ومن مؤمن الى رمز للإيمان..
ومن بطل الى رمز للبطولات..

١٧

عندما كان العبّاس يلفظ آخر انفاسه الزاكيات، كانت عينه السليمة تلاحق قطرات الماء التي اريقت من القربة، واختلطت بدمائه الطاهرة، وبدأت تغوص قليلاً في رمال كربلاء، لتخطّ قصة واحدة من اعظم ملاحم البطولة والوفاء والإيثار.

١٨

العباس حلم البطولة في كل مجتمع ممزّق بين الحق والباطل.. ووعد بالانتصار في كل معركة بين الإيمان والكفر..

١٩

ينتقل العباس من جيل الى جيل، ليس كتراث للإنسانية فحسب، بل كعامل مساعد لضمير البشرية كلّما عصفت به ازمة المُثُل العليا..

٢٠

نحن نذكر ما فعل العباس، ونهتزّ..
وهو فعل ما فعل.. ولم يهتزّ..

العبّاس..
شهيد القيم

كنت واقفاً عند مرقد العبّاس، الكائن على بعد مسافة قصيرة من مرقد اخيه الحسين في كربلاء، وكان ممتلئاً بالزائرين.. عندما حدثت جلجلة وبلبلة، وساد التوتر المقام.

كان عمري، اذ ذاك، ثلاثة عشر عاماً، وكان حبّ الإستطلاع يأخذ منّي كل مأخذ، فوقفت استطلع الامر، واستجليه.

رأيت مجموعة مكونة من عشرة اشخاص تقريباً، يمسكون برجل منهم، وهم يجرّونه بعنف، وهو في اشدّ حالات الذعر والخوف: زائق البصر، موزع الفؤاد، تعلو وجهه اصفرارة الذهول..

كان واضحاً ان لأولئك الرجال شأن غير اقامة الصلاة والدعاء والزيارة..

ضرب الناس حولهم طوقاً، واشرأبت الاعناق، لتستطلع. و سكتت الانفاس لتستمع.

قلت للواقف الى جانبي ـ: ما هذا؟

قال ـ: «يبدو أنّ هنالك حادثة قتل، وأنّ ذلك الرجل الذي يمسكون به متهم بها، وقد جاءوا به ليحلف بالعبّاس على برائته، أو يعترف بالجريمة».

وبينما كان الجميع يلتزم الصمت، تقدم احد الخدم العاملين في المقام، ليتلوا امامهم نص الحلف الذي تلاه بصوت جهوري قائلاً: «أحلف بسيدي ومولاي أبي الفضل العبّاس ابن أمير المؤمنين علي بن ابي طالب، بطل العلقمي، وصاحب لواء الحسين الشهيد بكربلاء...».

كانت كلماته تدوّي في المقام، وكان المتّهم يكرّر بصوتٍ متقطع تلاوة النص كلمة فكلمة. واستمرَّ الخادم في تحليفه، إلى أن وصل إلى قوله: «أحلف بهذا العبد الصالح، المطيع لله ولرسوله أنني لم أقتل، ولم أشارك في قتل فلان ابن فلان».

هنا توقف المتّهم عن ذكر هذه الجملة، وبقي صامتاً.. فكرّر الخادم كلامه، ولكن الرجل تلعثم ولم يقل شيئاً، فصرخ فيه أحدهم: «ويلك احلف» ولكنه رفض الكلام وتغيّر لونه.

كنت أنا ـ مثل غيري ـ مأخوذاً جداً بهذا الموقف. وبعد ان كرّر الخادم تحليفه ثلاث مرات، ولم يحلف الرجل اخذ أصحابه يجرّونه الى خارج المقام وهم يصرخون: «أيها القاتل العبّاس كشف

جريمتك.. فاعترف بالحقيقة».

فقال الرجل بصوتٍ ضعيف «اسمحوا لي، فأنا قاتل صاحبكم».

في العراق لا يحلف الناس بالعبّاس كذباً، ويعتقدون أنه عليه السلام سوف ينتقم ممن يفعل ذلك، ومن هنا فأن قضية التحليف به يستخدم في القضايا الهامّة، مثل براءة المتهمين وإدانة المجرمين.

* * *

ذلك نموذج واحد من مظاهر حضور العبّاس اليومي في حياة الناس، ليس فقط في العراق وإنما في العالم كله.

ومن المظاهر الأخرى قيام الألوف بزيارة مقامه كل يوم، سواء من أجل الحصول على الوسائل في الحياة، او من أجل الحصول على الغايات، فالعبّاس يحرّك زائريه نحو أنبل المعاني الإنسانية التي كان يجسّدها في حياته، كما انّه وسيلة لقضاء حوائجهم اليومية.

وليس مرقده إلا ذلك المكان الذي يتوجه فيه الناس إلى المعنى، قاطعين مسافة الزمان الذي يفصلهم عن زمانه، بمجرد الوقوف عند ضريحه قائلين له: «سلامُ الله و سلام ملائكته المقرّبين، وأنبيائه المرسلين، وعباده الصالحين وجميع الشهداء والصديقين، والزاكيات الطيبات، فيما تغتدي وتروح عليك يابن أمير المؤمنين. أشهد لك بالتسليم والتصديق والوفاء والنصيحة لخلف النبي المرسل، والسبط المنتجب، والدليل العالِم، والوصي المبلّغ».

«واشهد الله، انك مضيت على ما مضى به البدريّون، والمجاهدون في سبيل الله، المناصحون له في جهاد أعدائه، المبالغون في نصرة أوليائه، الذابّون عن أحبائه..»

وهم بهذه الكلمات يستعيدون التاريخ الماضي، ويستعرضون بطولات البدريّين والمجاهدين.. كما يتذكرون ما فعله العبّاس في تاريخه.. فأنت في حضور العبّاس تشعر وكأنّك تراه واقفاً في يوم عاشوراء بقدّه الرشيق، وطلعته البهية، ماسكاً بسيف عليّ، وراية الحسين، يدافع عن كل النبوات، وكل المناقبيات، فتعيش معه أجواء ملاحمه وبطولاته.

إنّ مرقد العبّاس اليوم مزار مئات الألوف، يأتونه من كل فج عميق، لأنه يذكّرهم بالله.. فهو مقصد المؤمنين ليس كهدف، بل كوسيلة، وضريحه مكان للدعوة إلى الله، والتضرع إليه، وإعلان الولاية لأولياء الله، والتبرؤ من أعدائه.

في حضور العبّاس يتجسّد في صلاتك كلّ الخشوع لله تعالى، فالصلاة في محراب الشهداء هي الصلاة الحقيقية، وهي تختلف عن ألف صلاة مزيفة أخرى.. انها تختلف عن الصلاة في غرف نوم الملوك، وتختلف عن الصلاة للتظاهر أمام الناس، وعن الصلاة لكسب الرأي العام، وعن الصلاة المجردة عن تحمل المسؤوليّة، وعن الصلاة التي لا تنهى عن الفحشاء والمنكر والبغي.

ولذلك لا ترى عند ضريحه إلا التورع والتضرع والدعاء والصلاة والنصيحة.. فهو شهيد تلك القيم.

وينقسم الناس بالطبع هناك إلى درجات: منهم من يعبد الله لكسب رضاه، ومنهم من يستمدّ منه العزيمة لمواجهة طغيان الطغاة، ومنهم من يستنجد به لكسر شهوات الجسد، وتحمل المسؤوليّة تجاه المخلوقين، ومنهم من يطلب منه حوائجه، فالناس يرون العبّاس بوابّة الحوائج، وليس ذلك إيماناً بالخرافات، فالحقيقة والخرافة تتمايزان في عالم النظريّات، ولكن في عالم الواقع فإنك لا تستطيع أن تقول لمن يطلب حوائجه عند ضريح العبّاس «أن ذلك خرافة»، فهو يحصل عليها بالفعل، وأنا ممن أؤمن بذلك، لأنني طلبت حوائج كثيرة من الله وقدّمت العبّاس بين يدي حاجاتي، واستجاب الله دعائي، ومثلي ألوفٌ مؤلفة من الناس في كل مكان..

حقاً ان للعبّاس حضور يومي في حياة الناس، خاصةً في أوقات الشدّة، وعند مواجهة المشاكل، والحاجات العادية، وفي مواجهة الشهوات النفسية.

كما ان للعبّاس حضور قويّ عند المواجهة مع الظالمين، أليس من أشهر العلامات التي يرفعها الثائرون في حالات المقاومة، هي علامة كفّ العبّاس؟ وهي العلامة التي ساهمت بمقدار كبير في الحفاظ على أكفّ المظلومين في كثير من الثورات التي خاضوها ضد سلطات

الجور أو جنود الاحتلال، فكفّ العبّاس هي أشهر كفّ قطعت في سبيل الحق، وهي الكفّ التي ضحّى بها صاحبها حتى لا تتم التضحية بكفّ الحقيقة، بل إنّ كلّ جزءٍ مما ضحّى به العبّاس اصبح رمزاً عالمياً في كل زمانٍ و مكان: كُفّه، وعينه، وجبهته، وصدره.

وكما كان سيف الحسين أطول سيوف الحق في التاريخ فإنّ راية العبّاس كانت ارفع رايات العدالة فيه..

فلقد امتزجت تلك الراية بقلبه، وبمبادئه وقيمه ومثله العليا، لترمز إلى أن الإيمان بالحق وحده لايكفي، بل لابد من رفع رايته.

ورفع رايته لايكفي، بل لابد من الاستماتة من اجله.

والدفاع عنه لا يكفي، بل لابد من الاستعداد لكي تقطع من حاملها يداه، وتقلع منه عينه، ويتلقى ضربة من عمود الحديد على قمة رأسه.

❊ ❊ ❊

عندما قُتل العبّاس، وانتهت المعركة بمقتل الحسين عليه السلام وجميع أصحابه، انتدب عمر بن سعد ـ قائد جند يزيد ـ عشرة من الخيالة لكي يسحقوا أجساد الشهداء، حتى لا تصبح لهم قبور فتتحول الى مزارات يحج إليها الناس من كل مكان..

غير ان الله تعالى ـ الذي أبى بعزته، إلّا ان يدافع عن الذين آمنوا في الحياة الدنيا، ويوم يقوم الأشهاد ـ خيّب ظنون أولئك الطغاة..

فها هو مقام أبي عبدالله الحسين عليه السلام ومقام اخيه ابي الفضل العبّاس يقصدها كل عام اكثر من مليون شخص، يطلبون بذلك رضى الله تعالى في موالاة أوليائه، والبراءة من أعدائه، ويطلبون من روحيهما الشفاعة لذنوبهم، ويتلقون المعجزات في قضاء حوائجهم..

فالعبّاس تحوّل بالشهادة من شخص، الى شاخص.

ومن مؤمن، الى رمز للإيمان..

ومن بطل، الى نموذج للبطولات..

والألوف الذين يزورنه على مدار الساعة إنما يرون فيه مثالاً لكل الفضائل، في أجلى صورها..

فقد اشتمل العبّاس عليه السلام بالوفاء، واشتمل به الوفاء.. وتسربل بالإيثار، وتسربل به الإيثار.. وتخندق بالشجاعة، وتخندقت به الشجاعة.

فاصبح نموذجاً لبطولة الإيثار حتى الموت..

وبطولة الوفاء حتى الموت..

وبطولة المقاومة حتى الموت..

واخذ ينتقل من جيل الى جيل، ليس كتراث للإنسانية فحسب، بل كعامل مساعد للعالم كلما عصفت به أزمة المُثل العليا.

لقد كانت شهادة العبّاس قيمة استثنائية قلّما يحظى بها أحد. ولذلك فقد اصبح فضيلة قائمة بذاتها، كما اصبح عدوّه رذيلة قائمة

بذاتها.

وليس ما يردده زائره عند ضريحه بقوله: «أنا سلم لمن سالمكم، وحرب لمن حاربكم» إلا تأكيداً على هذه الحقيقة..

لقد اعتمد الطغاة على القتل كوسيلة للقضاء على الحسين واخوته، وبنيه، وأصحابه، كأشخاص..

واستنجد بجمهرة من وعّاظ السلاطين للقضاء عليهم كحاملي قضايا حقة..

وعندما حسموا المعركة في عصر يوم عاشوراء من عام ٦١ هجريّة، رقصوا على جثث أولئك الرجال، وعربدوا، واسكروا، ثم قطعوا رؤوس الشهداء، وحملوها مع أسرهم الى طاغية الكوفة عبيدالله بن زياد، وطاغوت الشام يزيد بن معاوية، وظنّوا ان كل شيء قد انتهى لمصلحتهم..

غير انَّ الشهداء لاحقوا القتلة الى مضاجعهم، فإذا بلعنة الحسين، والعبّاس تلحق بهم في كل مكان، فيلاقي أكثرهم الجزاء العادل، قتلةً بقتلة.. ومثلةً بمثلة، في دنياهم قبل ان تستلمهم ملائكة العذاب في آخرتهم.

ان الحسين عليه السلام وعضيده العبّاس اصبحا منذ ساعة مقتلهما رمزين شامخين لكل المناقبيات، ودخلا في ضمائر الناس، يدفعانهم الى التقوى والعمل الصالح، والدفاع عن المظلومين، و

مقاومة الظالمين..

لقد قُتِلا من اجل الحق.. وقاتلا من اجل العدل.. وأريقت دمائهما من اجل الإيمان.. فأصبحا رايتين، وشعارين، يتجاوزان الزمان والمكان..

ذلك ان شهادتهما كانت نتاج المواجهة بين المنطق الإلهي الذي يرى الدنيا بعين الآخرة، ويلتزم بكل الفضائل.. وبين المنطق المصلحي، الذي لايرى الآخرة أصلاً، ولا يلتزم بأية فضيلة.

وتلك المواجهة لا تعرف حدود الزمان، ولا حواجز المكان.. لأنها مواجهة مستمرة منذ خلق الله الإنسان، الى نهاية البشرية، سواء في أعماق النفوس، او في داخل المجتمعات..

وكان للعبّاس دور كبير في تلك المواجهة..

فلقد مزّق، تحت قيادة الحسين عليه السلام خيوط العنكبوت التي نسجتها أيادي بني أمية، حول عقول الناس وضمائرهم..

واثبت بشهادته ان الجباه الساجدات لله، لن تخضع ـ مهما اشتدّ بها المقام ـ لطغيان الطغاة..

وظن أعدائه انهم قتلوه..

ولكن..

لا السيف الذي قطع يده..

ولا السهم الذي مزّق عينه..

ولا العمود الذي فلق هامته..

ولا كل محاولات التشويه التي طالت قضيته، استطاعت ان تمحي اسمه، وأن تؤثر على روحه الهائجة بالمثل، وفحولته العارمة ضد الطغيان، وثورته المليئة بالبطولة..

فالعبّاس بعد اكثر من ألف وثلاثمائة وسبعة وخمسين عاماً من سقوطه على الأرض، يعود حياً في كل مواجهة بين الحق والباطل، ليملأ قلوب اهل الحق بقوة العزيمة، ومضاء الإيمان، وصدق النية.

وهو في الليالي الحالكات يطرق أبواب البيوت، ليقول للناس: ان من يخسر يديه في سبيل الحق، فسوف يُعوّض عنهما بجناحين يطير بهما في الجنة..

وأن من يخسر بصره في المجابهة مع الباطل، فسوف يُعوّض عنه ببصيرة نافذة، تخترق حجب الأوهام..

وأن من يخسر قمة رأسه، فسوف يتربع ـ لا محالة ـ على رأس القمة..

وأن من يخسر حياته في الدنيا في سبيل الله، فسوف يربح حياة أبدية في جنة الخلد عند مليك مقتدر..

أن العبّاس يعود اليوم حلماً بالبطولة، في كل مجتمع خامل، و وعداً بالانتصار في كل معركة بين الإيمان والنفاق..

لقد ذهب الجلّادون والقتلة الى مزبلة التاريخ..

أما العبّاس فقد ازدهرت سيرته، ونمت بطولاته، لتصبح شجرة من نور، اصلها في كربلاء وجذورها تمتد الى كل بقاع الأرض، وثمارها تنمو فى الضمائر كقيم للنبل، والإيثار، والشجاعة، والوفاء، والكرم..

وقد تحوّل عليه السلام، باقتحامه الموت إلى بطلٍ لملحمةٍ بحجم البشرية كلها، فاصبح للملحمة حجم أوسع مما كان لها.

واصبح لكل الفضائل مقاسات جديدة، اكثر علواً وسمواً وارتفاعاً.

فلقد امتلك امتياز صفاء الروح، وكرم السجية في حياته اليومية، وفي مواقفه الاجتماعية، وجاء مقتله ليشكّل، هو الآخر، امتيازاً لم يحظ به أحد.. فقد أعطى أعضاء جسمه في سبيل الله ـ تعالى ـ قطعة فقطعة، فسبقته أعضائه الى الجنة، قبل أن يسلّم روحه إلى بارئها، فأعطى أولاً يده اليمنى.. ثم أعطى يده اليسرى.. ثم أعطى عينه.. ثم أعطى صدره.. ثم أعطى قمة رأسه، ثم هوى إلى الأرض، لتعرج نفسه الزكية إلى جنة الخلد راضية، مرضية. لم تنجسها الجاهلية بأنجاسها ولم تلبسه المدلهمات من ثيابها.

ولم يكن غريباً اذن، أن يبكيه الحسين بكاءاً عالياً، فقد رجع ابو عبدالله إلى المخيم، بعد مقتل اخيه، ليواجه النسوة وهن في ذهول لا يعرفن ماالذي حدث؟ وكيف حدث؟

ذلك أن العبّاس ذهب ليأتي بالماء، وذهب خلفه الحسين بعد ان انقطعت اخباره ليستجلي الأمر، فخرجت النسوة من المخيم ينتظرن ما يعود به الحسين.. فإذا بهم يرونه منكسراً، حزيناً، يكفكف دموعه بكمّه، وهو يقول:

«أما من مجيرٍ يجيرنا؟..

أما من مغيثٍ يغيثنا؟..

أما من طالب حقٍ ينصرنا؟..

أما من خائفٍ من النار فيذبُّ عنّا؟..»

فتقدمت إليه ابنته سكينة، وأخذت بعنان جواده قائلة: «أين عمّي العبّاس؟»

فقال الحسين: «أنّ عمك قد قتل»

ثم بكى بكاءاً مرّاً، وبكت النسوة، وصاحت زينب:

«وآمحمداه.. وآعلياه.. وآفاطمتاه.. وآعباساه.. وآضيعتنا بعدك يا أبا الفضل».

لقد شعر أهل البيت بالفجيعة من مقتله، لأنه كان عمود خيمتهم.. وهاهو العمود قد انكسر.

وكان حامل رايتهم.. وها هي الراية قد سقطت.

ولم يكن أيضاً غريباً تلك الغضبة الهاشمية التي أبداها الحسين بعد مقتل أخيه، حيث انقضّ على الأعداء، كأنّه الصقر يضرب فيهم

يميناً وشمالاً وهو يصرخ فيهم: «إلى أين تفرون وقد قتلتم أخي؟»

«إلى أين تفرون وقد قتلتم عضدي؟»

إلى اين تفرون يا قتلة اولاد النبيين؟»

ولا كان غريباً من سيد شباب أهل الجنه تلك الكلمات التي تلفظ بها على جثته قائلاً:«يعزّ، والله عليّ فراقك.. الآن انكسر ظهري، وقلّت حيلتي، وشمت بي عدوّي».

وفي الحقيقة أن الحسين شعر بهزّة عاطفية عميقة، عندما سمع صوتاً خافتاً من ساحة المعركة يقول: «عليك مني السلام يا أبا عبدالله».

وكانت تلك الكلمة تعني الوداع الأخير، فقد كان الأصحاب يشيرون بها الى مقتلهم، ولم يكونوا يتلفظونها إلا في اللحظات الأخيرة من الحياة، عند تسليم الروح.

وعرف الحسين من وداع العبّاس انه في موقفٍ صعب، اي إنه في النزع الأخير، ولابد انه تحت رحمة تلك السيوف القاسية التي يحملها زنود العتاة من أهل النفاق..

فقفز على فرسه، وأخذ يطير به باتجاه مركز الصوت، ولكنّه كلّما تقدّم به المسير أبطأ قليلاً، وهو يتوقع أن يرى ما لم يكن يرغب أن يراه، وإن كان لا يزال به أمل أن يصل إلى اخيه قبل أن تفيض روحه، لكنه ـ على كل حال ـ كان يعرف أن العبّاس ليس بالذي يستغيث،

ولا من يتلفظ «تحية الوداع» إلّا في اللحظات الأخيرة من حياته.

وهكذا فإنّ الحسين كان يقدّم رجلاً، ويؤخّر اخرى، بعد أن نزل من جواده وقد ابتعد الأعداء عن جثة العبّاس يراقبون الموقف، وكانوا يلتذون كلّما حزن الحسين، ويحزنون كلما فرح.. فلقد كانوا في النقيض لما كان عليه أهل البيت، في أعمالهم ومواقفهم ومشاعرهم أيضاً.. كأنهم كانوا يلعبون لعبة «الصاعدة بالنازلة» فكلما عرج أهل البيت في المناقبيات، نزلوا هم إلى حضيض الموبقات، تماماً كما كانت الحالة بين الكفار الجاهلية ورسول الله صلى الله عليه وآله.

وفي الحقيقة فإنّ من الصعب أن نعرف ماذا كانت مشاعر أبي عبدالله في تلك اللحظات المرعبة، التي كان فيها على وشك أن يودّع أخاه الذي وقف معه مدة خمسة وثلاثين عاماً لم يفارقه فيها، وكان بالنسبة اليه عينه الباصرة، ويده الضاربة، وظهره الذي يستند إليه.

لقد كان العبّاس، قبل ساعات، يقف إلى جانب اخيه، وهو يحمل اللواء ويحارب دون معسكره، وكانت النسوة يجدن فيه سلوتهم، وكنّ اذا سقط شهيد من الشهداء، نظرن الى العبّاس فتطمئن به قلوبهن.. فكيف يستطيع الحسين في لحظات أن يتحمل غيابه الخاطف؟ وماذا سيكون وقع هذا المصاب الجلل على عياله؟!

عندما كان الحسين يتقدم إلى مصرع اخيه شعر لأول مرة

بالوحدة الحقيقية.. وكان العدوّ يقف مراقباً، ينظر ماذا يفعل؟ فشاهده أحدهم وقد انحنى قبل الوصول إلى جسد ابي الفضل وقد التقط شيئاً من الأرض.. وكانت تلك اليد اليمنى للعبّاس وقد قطعت من الكتف.

ثم مشى عليه السلام قليلاً والتقط قطعة أخرى.. وكانت تلك يده اليسرى، وقد قطعت من الزند.. فلقد تطايرت أعضاء العبّاس على مساحة من الأرض: قطعة هنا، وقطعة هناك.

ترى كم هو صعب أن يقف المرء موقفاً يجمع فيه أعضاء أخيه؟

غير أنّ الذي هوّن ذلك على الحسين، انه كان يجري بعين الله، فالله هو الشاهد، وهو الحاكم، والحسين قد نذر نفسه لله، كما فعل أخوه وأصحابه.

ولما تقدم اكثر فوجيء بالعبّاس مضرجاً بدمائه، وسهم نابت في عينه، واخر في صدره، بينما كان رأسه مفطوراً بعمود من الحديد وكان لايزال ينزف بغزارة.

أهذا هو «العبّاس»!؟

إنّ الحسين شعر بحزن عميق بعمق البحار، كما شعر من قبل رسول الله بحزن مماثل، حينما واجه جسد عمّه حمزة بن عبد المطلب بعد معركة «أُحد» وقد مثّل به الاعداء، ولولا أن الحسين كان يعرف أنّه راحل الى الموت في اثر اخيه، لطارت روحه الزكية مع روح ابي الفضل إلى جنة الخلد، فقال عليه السلام وهو ينظر إلى تلك

الجثّة: «قتلة كقتلة النبيين وأولاد النبيين».

فعلى مرّ التاريخ كان أعداء الرسل ينكّلون بقتلاهم، ولا يلتزمون بأية حدودٍ في المواجهات العسكرية. كيف ويزيد وجنده كانوا يختزنون كل الاحقاد التي حملها من قبل جده ابو سفيان وجدته هند والتي دفعتهما الى التمثيل بجسد حمزة عليه السلام.

❊ ❊ ❊

العبّاس..
رجل المهمات الأصعب

ترى كيف استطاعوا قتل العبّاس ولم يكن أحد يجرأ من ذي قبل على مواجهته؟..

لقد كان العبّاس مثل أبيه علي بن أبى طالب، الذي يخشى الجميع من مواجهته، وذلك لأنه ما صارع أحداً إلا وصرعه، وما نازل أحداً إلا وقتله.

ففي معركة «صفين» عندما طلب الأمام من معاوية بأن يخرج إليه شخصياً ويقاتل معه، اقترح عمرو بن العاص أن يقبل التحدي ويخرج لمنازلة الإمام، لكنّ معاوية رفض ذلك قائلاً: «لا.. وإنما نخرج إليه بجمعنا».

ويبدو أن العدوّ هنا في كربلاء أيضاً لم يكن يملك القدرة على قتل العبّاس، لولا أنهم خرجوا إليه بجمعهم، واستطاعوا أن يقطعوا يديه، ويصيبوا عينه، ويمطروه بالنبال اولاً، وهذا ما جرأهم على أن

يضربوه بعمود الحديد على رأسه، فخرّ صريعاً على الأرض.

العبّاس بمقدار ما كان شديد البأس على العتاة فقد كان رقيق القلب تجاه النساء والأطفال والمستضعفين جميعاً، فقد كان يتفجّر عاطفة انسانيّة كلما كان يرى ما بهن من الظمأ والعطش، وقد قتل في سبيل هؤلاء، وهو الوحيد الذي قتل يوم عاشوراء لقضية محددة، هي محاولة إرواء عطش النساء والأطفال والرضع، ذلك أنه بعد أن قتل كل الأصحاب والأقرباء بمن فيهم أخوته. من أبيه وأمه ولم يبق أحد إلا هو والحسين، ازداد حصار العدوّ عليهم شراسة، إذ أن «شمر بن ذي الجوشن» كان يستعجل وضع النهاية لتلك المعركة الدامية التي كان بنو أمية وجندهم يريدون فيها أخذ الثأر من رسول الله، «وما فعل بأشياخهم ببدر وحنين» وذلك تحت عمامة الإسلام وخيمته!!

لقد كانت خلافة يزيد ثمرة المؤامرات الواسعة التي حاكها أبو سفيان للقضاء على الإسلام وعلى أهل بيت الرسول، بالحرب حيناً، وبالدسائس حيناً، وبالقتل والقتال حيناً آخر.

وكان إعصار القتل وغريزته قد بلغت الذروة عندما أقدموا على قتل تلك الذرية الطاهرة، بعد أن حاصروهم بالجوع والعطش والحراب، وكانت رائحة الدماء الزكية التي أريقت بغزارة في ذلك اليوم قد استحثت فيهم كل الغرائز الحيوانية، وكما يفعل مجموعة من

الذئاب بعد صيد الغزال الذي ما إن ينزف تحت أيديهم حتى يزداد حماسهم لتقطيع أوصاله، فإنهم كانوا في أوج حماسهم للقضاء على الحسين بأسرع وابشع ما يمكن، لكنّ وجود العبّاس إلى جانبه كان يسلب منهم القدرة على تنفيذ ذلك، فكم من هجوم شنّوه على مخيم أبي عبدالله في تلك اللحظات الأخيرة، واستطاع هو وأخوه من ردّهم على أعقابهم.

لقد كانت حرب السيوف تسمح لمقاتل شجاع واحد أن يقلّب ميزان القوة بمفرده، فيمنع الكثرة من أن تغلب القلّة، فما دام هنالك من يستطيع صد الرجال الذين يتقدمون في الهجوم فإنه قادر على صدّ من خلفهم، فلقد عجزوا عن تنفيذ مئاربهم، كما كان يرغب في ذلك شمر بن ذي الجوشن، بل إنّ الحسين وأخاه العبّاس شنّا أكثر من هجوم عليهم، بعد أن بقيا وحيدين في الميدان.

ترى من كان يجرأ على مواجهة قلب عليّ عليه السلام الذي أودع في صدر الحسين والعبّاس؟

ومن كان يستطيع ان يتطاول على سيفين من سيوف رسول الله مودعين في زندي العبّاس والحسين؟

إلا أنه بمقدار ما كان العدوّ يستعجل النهاية بقتل الذرية الطاهرة من أجل حطام الدنيا، بنفس المقدار كانت نفس العبّاس تتوق لاستقبال الشهادة، حتى يفد على رب كريم غفور، و يعانق وراء

جدار الموت، كلاً من رسول الله، وعلياً، والشهداء الذين سبقوه.

لقد كان العبّاس ـ في تلك اللحظات ـ على عجلة من أمره لدخول الجنة، كما كان أعدائه على عجلة من أمرهم لكسب الجائزة عند عبيدالله بن زياد.

وبمقدار ما كان حبّ الدنيا قد أعمى بني أمية وجندهم، بمقدار ما كان حبّ الآخرة قد أجنّ أصحاب الحسين، وذلك ما كان يدفعهم إلى استسهال الموت في سبيل الله.

ألم يخرج «عابس بن شبيب» قبل ساعات من مقتل العبّاس وهو حاسر الرأس، من دون مغفر ولا درع، لمواجهة ثلاثين ألف مقاتل من الذين يحملون كافة الأسلحة المتاحة في ذلك اليوم.

وعندما قيل له «ما انت صانع؟ امجنون انت؟!».

اجاب «لا تلوموني، فإنّ حبّ الحسين قد أجنني»!؟

لقد كانت رغبة الشهادة تزداد لدى العبّاس، كلما كانت تقلّ لديه فرص الانتصار على العدوّ..

وها هو يقف الآن أمام الحسين ليقول: «أبا عبدالله».

ثم يصمت.. كان يعرف أن ما يريده سيكون شديد الوقعة على قلب أخيه، ليس من أجله هو، بل من أجل النساء الثواكل اللاتي أودعن كل أملهن فيه، بعد أن صرعت سيوف البغي أصحاب الحسين جميعاً، ولم يبقى أحد غيره.

أعاد العبّاس كلامه، وكان وجهه إلى الأرض خجلاً من اخيه، فقد كان يطلب منه الفراق!.

سكت قليلاً، أضاف بعدها: «هل تأذن لي في القتال؟».

وكان ذلك يعني هل تأذن لي بالموت!

كان كلّ الذين استشهدوا في يوم عاشوراء قد أخذوا الإذن منه، وكان عليه السلام يعطيهم ذلك بسهولة، بل ان البعض كان يكتفي بقوله: «السلام عليك يا أبا عبدالله».

ويجيبه الحسين عليه السلام «وعليك السلام»، ثم يتلو قوله تعالى: ﴿فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر، وما بدّلوا تبديلاً﴾.

وقد قال أحدهم له «أفلا نروح إلى الجنة؟».

فقال الحسين: «بلى، رُح إلى ماهو خير لك من الدنيا وما فيها»، ولكن لا أحد من الأصحاب كان مثل العبّاس، فهو الحصن الأخير أمام طوفان الشرّ، والسّد المنيع الذي يعجز العدوّ عن تجاوزه، وغيابه كان يعني انفتاح الباب على كل الاحتمالات.

ثم إنّ فراق الأحبّة ـ على كل حال ـ اصعب ما يكون بين قلبين، لم يفصل بينهما إلا الجسد.

فقال الحسين: «أخي أنت صاحب لوائي، وأنت العلامة من عسكري، فإذا غدوت يؤل جمعنا إلى الشتات، وتنبعث عمارتنا إلى الخراب».

لكن العبّاس، من جهته، كان يريد أنّ يقتل ليس قبل الحسين فحسب، بل دونه أيضاً، أي في الدفاع عنه، وعن قضيته.

وكان ذلك هو قمة الإيثار..

فأن تعطي مالك للفقير مع احتياجك إليه إيثار..

وان تعطي وقتك لمساعدة محتاج، وأنت في عجلة من أمرك إيثار ايضاً.

وان تعطي طعامك وشرابك لغيرك، وأنت في أمسّ الحاجة إليهما إيثار كذلك.

وكل ذلك من صفات المؤمنين، يقول تعالى:

﴿ والذين تبوؤ الدار والإيمان من قبلهم، يحبّون من هاجر إليهم، ولا يجدون في صدورهم حاجة مما اوتوا ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ﴾.

ولقد كان المؤمنون الأوائل يتصفون بهذا النوع من الإيثار.. كما فعل أولئك النفر الذين سقطوا جرحى في أحد المعارك، و كان بهم بعض الرمق، فجاء الساقي الى أحدهم بالماء فقال له: «أخي اضمأ منّي».. فحوّله الى الثاني، وهو بدوره حوّله الى الثالث، الذي وجده الساقي قد اسلم الروح، فعاد الى الثاني، وكان قد مات، فأسرع الى الأول ـ فوجده ميّتاً أيضاً.

ذلك من إيثار الحاجات، لكن الذي اتصف به العبّاس كان نوعاً

آخر من الإيثار وهو إيثار النفس.

لقد كان ببساطة يريد ان يموت دون الحسين.

ومن جهة أخرى فقد زاد مع رحيل اخوته واصحابه، شوقه الى لقاء الله، فقال للحسين: «فداك روح أخيك، لقد ضاق صدري وسئمت من الحياة، وأريد أن آخذ الثأر من هؤلاء المنافقين».

كان قد ضاق صدره من العيش تحت سماء واحدة مع المنافقين، من أمثال «عمر بن سعد» و «شمر بن ذي الجوشن»، اولئك الأجلاف الذين باعوا كل شرفهم لبطونهم التي ملئت من الحرام، وأيديهم التي تعودت على إراقة الدم الحرام، وفروجهم التي تعبت من ارتكاب الذنب الحرام.

اعاد العبّاس طلبه، ثم أطرق بوجهه إلى الأرض..

كان يخشى أن لا يسمح له الحسين، وكان الحسين يخشى أن لا يستجيب للطلب الواحيد، الذي كان يطلبه منه في ذلك اليوم.

.. مرّت لحظات من الصمت الثقيل، فقد شعر كلاهما بقرب الفراق، إلا أن الحسين كان يستشعر بالإضافة إلى ذلك بوحشة الوحدة..

فقال لأخيه: «إن كان ولابد، فاطلب لهؤلاء الأطفال قليلاً من الماء».

كان العبّاس من ذي قبل هو الذي يتصدى للمفاوضات مع العدوّ

في مختلف الشؤون، وهاهو الحسين ينتدبه للمرة الأخيرة للدخول في المفاوضات معهم من أجل الحصول على الماء «بقوة المنطق».

أن الحسين لم يكن، بالطبع، طالب حرب.. بل كان طالب حق، وهو كان يريد الاصلاح في أمة جدّه.. كان يريد ان يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر.. والذي أخرجه من مكة باتجاه الكوفة لم يكن تنافساً في سلطان، ولا التماس شيء من الحطام، ولكن ليأمن المظلومون من عباد الله، ولتقام المعطلة من حدوده، وهو لذلك لم يترك مناسبة إلا وطرح بديلاً عن الحرب، وأتم حجته على العدوّ، لكي لاتكون لهم الحجة عليه فيما يفعل، ويفعلون..

أما أولئك القساة فكانوا لا يريدون إلّا الحرب، كانوا يريدون القتل اللئيم، بكلّ ما في الكلمة من دلالات، وبكل ما في نزعة الشرّ من أساليب، لكن إتمام الحجة من جانب الحسين عليه السلام وأصحابه كان ضرورياً للمرحلة القادمة بعد هذه الحياة، في المحاكمة التي ستجري يوم القيامة، بين يدي جبار السموات والأرض، من هنا فقد أرسل أخاه ليكلّم القوم في مسألة الماء..

وهكذا جاء العبّاس و وقف في وسط الميدان ونادى بأعلى صوته:

«يا عمر بن سعد.. هذا الحسين، ابن بنت رسول الله يقول لكم أنكم قتلتم أصحابه وأخوته وبني عمه، وبقي فريداً مع أولاده وعياله

وهم عطاشى، قد أحرق الظمأ قلوبهم، فاسقوهم شربة من الماء، لأن أولاده وأطفاله قد وصلوا إلى الهلاك، وهو مع ذلك يقول: دعوني أذهب إلى الروم أو الهند، وأخلي لكم الحجاز والعراق».

لم تكن تلك دعوة للتراجع أو الاستسلام، ولا كانت من جهة أخرى تكتيكاً أو حيلة، ولكنها كانت دعوة مخلصة، لأن الذي كان يريد القتال هو العدوّ، وليس الحسين، تماماً كما أن قابيل هو الذي أراد قتل هابيل وليس العكس. ونمرود هو الذي أراد إحراق إبراهيم وليس العكس. وفرعون هو الذي أراد قتل موسى وليس العكس. فالباطل تقوم طبيعته على شنّ العدوان.. أما الحق فطبيعته تقوم على مواجهة العدوان وردعه، بعد إتمام الحجة على العدو.

ان الصراع في كربلاء كان يدور بين جاهلية عمياء، وبصيرة نافذة، وقد عبّرت الجاهلية عن نفسها بذلك الهيجان الغريزي لإراقة الدماء الزكية، أمّا البصيرة النافذة فقد عبّرت عن نفسها بالنصيحة، ومحاولة الهداية أولاً، وبعدم الرضوخ أو الاستسلام ثانياً..

لكنّ الجواب الذي سمعه العبّاس كان هو المتوقع من أولئك الذين ملئت بطونهم من الحرام فأنساهم الشيطان ذكر الله ـ حسب تعبير الحسين عليه السلام ـ فقد قال شمر: ـ

«يا بن أبي تراب.. قل لأخيك لو كان وجه الأرض كله ماءاً وهو

تحت أيدينا، لما سقيناكم منه قطرة، إلا أن تدخلوا في بيعة يزيد».

فتبسّم العبّاس من تلك الضلالة الجاهلية، وذلك الإصرار على بيع آخرتهم لدنيا غيرهم، فعاد إلى الحسين وأخبره بمقالة القوم.

وهنا ارتفعت أصوات الأطفال قائلين: «العطش.. العطش»!!

لقد فشلت «قوة المنطق» في الحصول على الماء، ولم يبق أمام العبّاس إلا التوسل «بمنطق القوة».

إنّ استخدام السيف ليس في نظر الإسلام الحل الأول، ولكنه حتماً هو الحل الأخير، إذ ليس البديل عنه إلا الإستسلام للباطل، وهو محرم بالقطع واليقين، عقلاً وشرعاً.

ولمّا كان العبّاس قد أتمّ الحجة على العدوّ فانه كان في حلّ مما سيفعله معهم.. وهكذا فأنه التقط من المخيم قربة خاوية، وقفز على الفرس واندفع في قلب الجند باتجاه شط الفرات، ـ وهو شط صغير يمرّ بكربلاء يتفرع من نهر الفرات الكبير الذي يمرّ ببغداد ـ، وكان عمر بن سعد قد وضع لحراسته أربعة آلاف مقاتل بقيادة «عمرو بن الحجّاج»..

اندفع العبّاس بأتجاه المشرعة، على طريقة أبيه في الهجوم، كأنه صاعقة من السماء تدمّر كل ما في طريقها، وكان يزمجر قائلاً:

أقسَمتُ باللهِ العَزيزِ الأَعظمِ وبالحجونِ صادقاً وزَمَزَمِ
وبالحطيمِ والفنى المحرّمِ ليُخضبن اليومَ جسمي بدمي

دونَ الحسينِ ذي الفخارِ الأقدَمِ أمـــامِ أهـــلِ الفـضلِ والتكـرُّمِ

لقد كان العبّاس ذا قـوة روحـيّة هـائلة، وكـانت طـبيعة بـناءه الجسدي تخدم قوّته المعنوية، فقد كان طويل القامة، عريض ما بين المنكبين، يركب الفرس المـطهم ورجـلاه تـخطان عـلى الارض، وكانت قوة روحه قد امتزجت بقوّة جسده، وأضيفت إليهما النخوة الهاشمية، وشعوره العارم بضرورة الحصول على الماء للأطفال.

كانت قوة اندفاعته قد حوّلته إلى كتلة من نار، وكانت جرأته تلك قد قسّمت جند العدو إلى سماطين، فقد كانوا يهربون من بين يديه، كأنهم المعزى إذا شدّ فيهم الأسد الهصور.

لقد خاض وحده مواجهة جيشٍ بأكمله، فشقه كما يشق المحراث أديم الأرض.. أكثرهم آثر الفرار الجبان من أمام اندفاعته، والذين سوّلت لهم أنفسهم الصمود تهاووا بين يديه كأنهم أوراق الشجر في هبة خريفية عاصفة، وقد عدّوا ثمانين من رجالهم قـتلى فـي ذلك الهجوم الذي استطاع به العبّاس أن يفتح ثغرة بطول الطريق في بنيان تلك القوة الغاشمة، واقتحم بفرسه الشريعة، والجميع في ذهول مما حدث، وبعضهم كان لايـزال فـي حـالة الفـرار مـنه، عـندما كـان العبّاس عليه السلام في وسط الشريعة.

ومن بعيد اخذ الأعداء يتلصصون النظر إليـه مـن بـين النـخيل

وفرائصهم ترتعد فَرَقاً منه، أحدهم حاول أن يناوشه، ولكن العبّاس بادره بالهجوم فقدّه نصفين، فسقط على الارض كأنه قطعة خاوية، فأصيب الجميع بالذعر، ووقفوا في صمت، كأنّ على رؤوسهم الطير.

كان الفرس قد اقتحم النهر حتى وصل الماء إلى فوق ركبتيه، مما كان يتيح للعبّاس أن يمد يده بسهولة ويشرب منه، وان يملأ القربة.. وبالفعل فقد مدّ يده اليمنى، بحركة عفوية نابعة من كبدٍ حرّى، إلى الماء الذي كان يجري في عذوبة ورقة، وملأها، وقرّبها إلى فمه، لكي يشرب..

أمسك العدو انفاسه.. قال احدهم لصاحبه: «انظر.. انه سيرتوي و يتقوى علينا».

قال الثاني: «منذ يومين لم يشرب الماء، وهاهو قد ملأ كفّه الآن».

وقال ثالث: «إذا استطاع أن يحمل الماء إلى الحسين، فالويل لنا جميعاً».

قال رابع: «لابدّ من أن نمنعه من الوصول إلى مخيمهم».

قال خامس: «أترون أن منع الماء عن الحسين، سيحمله في النهاية على الاستسلام والبيعة ليزيد؟».

قال سادس: «ليس ذلك وارداً، ولكن هكذا جاءت الأوامر من الأمير: ليعطش الحسين كما عطش من قبله».

قال سابع: «ومن يقصد الأمير بمن قبله؟».

قال ثامن: «لعلّه يقصد عثمان».

قال تاسع: «متى ينتهي الانتقام لعثمان؟.. لقد قتلنا به علياً والحسن، وقتلنا من أصحابهما ستين ألفاً وها نحن نرفع قميصه في وجه الحسين، الذي قتلنا كل أقربائه وأصحابه اليوم!! ثم هل أن أحداً يا ترى منع عثمان ثلاثة أيام من شرب الماء؟»

قال عاشر: «هذا الذي نمنع عنه الماء كان هو وأخوه الحسن قد سقوا عثمان، وقد دافعا عنه عند الباب حتى انهما وطئا تحت أرجل الثوار وأصيب الحسن بسهم طائش فشجّ وجهه و خضّب بالدم، ومع ذلك كيف ندّفع الحسين الثمن عن عطش عثمان.. بينما معاوية الذي رفع قميصه خمسة أعوام لم يفعل شيئاً بعد أن دانت له الخلافة!».

كانوا يتبادلون هذا النوع من الحديث عندما صرخ فيهم عمرو بن الحجاج قائلاً: «أسكت الله نأمتكم».

من جهته قرّب العبّاس الماء من فمه، ولما مسّته شفتاه، وأحسّ ببرده توقف عن شربه، لقد تراءت أمامه منظر الأطفال وهم يتراكضون من خيمة إلى خيمة لاهثين وهم يصرخون: «العطش.. العطش»، كما تذكّر الحسين وهو يقول: «إن كان ولابد، فأطلب لهؤلاء الأطفال قليلاً من الماء».

كما تذكّر صوت ذلك الطفل ذي الثلاث سنوات عندما قال لأمه: «أماه سأموت عطشاً».. وتذكر عطش الطفل الرضيع الذي تركه في

حالة الاحتضار..

فصدرت من العبّاس حركة نادرة لايمكن ان تصدر إلّا من أولياء الله: فقد رمى الماء على الماء وصاح، وكأنه قد أستيقظ من كابوس:

يا نفسُ مِن بَعدِ الحسين هُوني وبعدَهُ لا كنتِ أن تَكُوني
هذا حسينٌ شاربُ المَنونِ وتشربينَ باردَ المعينِ
تاللهِ ماهذا فعالُ دِيني ولا فِعالُ صادق اليقين

لقد ذكّر بموقفه هذا، مواقف أبيه الذي كان يمتنع عن أكل الطيبات خوفاً من ان لا يجد الفقراء مثلها.. وعاتب العبّاس نفسه عتاباً شديداً تمنى فيه الموت، لأن الحسين لايزال عطشاناً: «يا نفس من بعد الحسين هوني..» وكأنّه بذلك يكرر كلام أبيه: «ولو شئتُ لاهتديت الطريق إلى مصفى هذا العسل، ولباب هذا القمح، ونسائج هذا القزّ، ولكن هيهات ان يغلبني هواي، ويقودني جشعي إلى تخير الأطعمة، ولعل بالحجاز أو اليمامة من لاطمع له في القرص، ولا عهد له بالشبع».

فلم يغلب العبّاس هواه.. بل امتنع عن شرب الماء، ليموت فيما بعد عطشاناً كما مات اخوته واصحابه عطاشى.. وكانت تلك واحدةً من اندر مواقف الوفاء في التاريخ البشري كله، فلم نسمع أن مقاتلاً في شدّة العطش، في اشدّ أوقات القيظ في مثل أجواء العراق يدخل

الماء إلى ركبتيه، ويغترف منه، وعندما يحسّ ببرودته، يرميه، فهو يتذكر عطش أخيه وأطفاله ونساءه.

بالقطع واليقين لم يكن أحدٌ سيلومه إذا كان يرتوي منه حتى النفس الأخير، فكيف بشربة واحدة.. ولكنها المناقبيات التي اتصف بها أهل البيت عليهم السلام.. إنهم أوفياء حتى الموت، كما انهم مؤمنون حتى الموت.. وصامدون حتى الموت..

ولقد أذهل موقف العبّاس هذا أعداءه الذين كانوا ينظرون إليه من بعيد.. قال أحدهم «إنه لم يشرب.. هل هذا معقول؟»

قال الثاني: «لابد أنّه تذكّر عطش أهل بيته».

قال الثالث ـ متهكماً ـ: «هكذا هم هؤلاء، لا زالوا يلتزمون بقيم الوفاء والإيثار!»

وقال الرابع ـ مستهزئاً ـ: «وحتماً ينتظرون بدلاً عنه ثواب الآخرة».

وقال الخامس: «انه يقلّد أباه الذي خسر الملك، بحثاً عن ملك القيامة!».

وقال السادس: «أحمدوا ربكم انه لم يشرب، وإلا لم نتمكن منه».

وقال السابع: «هذه فرصتنا للقضاء عليه، فهو اكثر عطشا، واكثر تعباً».

ثم أن العبّاس ملأ القربة على عجل، وأحكم شدّ فتحتها ورماها على عاتقه، وأخذ السيف بيمينه، وخرج متجهاً نحو مخيم الحسين، وكان في تلك الحال كأنّه الطود يسير على الأرض..

وهنا صاح عمرو بن الحجاج بجماعته: «ويلكم اقطعوا عليه الطريق».

.. فاندفعوا عليه من كل جانب وحاصروه كأنهم النمل.

العبّاس..
كل شيء في خدمة الرسالة

كان العبّاس في تلك اللحظات أكثر قوّة من أي وقت مضى، فهو يحمل الماء إلى الأطفال والنساء، وتلك كانت هوايته المفضلة منذ أن كان صغيراً، أما الآن فأصبحت هوايته ـ رسالته، وربما تكون في سبيلها شهادته.

لقد امتلأت روح العبّاس بالإرادة والشجاعة، وتوحدت فيه القوّتان الروحية والجسدية، بالرغم من العناء والعطش الشديدين الّذين كان يعاني منهما.. تلك الشجاعة التي قد خرج بها للتوّ منتصراً من معركتين: المعركة مع هوى نفسه، حيث لم يشرب الماء،.. والمعركة التي سبقت اقتحام الشريعة، والتي قَتلَ فيها ثمانين من رجال العدوّ.

إنّ امتياز أهل البيت لم تكن في قوتهم الجسدية في مواجهة الأعداء فحسب، بل كانت في قدرتهم على إخضاع تلك القوة للقيم

والمبادىء.. كانت الشجاعة عندهم في خدمة الرسالة ولذلك فهي كانت في خدمة الضعفاء، وكلّما كانوا يؤدون عملاً رسالياً كانت تزداد قوتهم الجسدية أيضاً، وكلّما كانوا يخالفون هوى أنفسهم كانوا يزدادون شجاعة روحية، أما أعداءهم فكانت قوتهم حيوانية بحتة، تتجه نحو الشراسة، وتنحو الى العدوانيّة، وتنزلق لإلحاق الضرر بكل ضعيف أو مستضعف.

كانت شجاعة العبّاس في تلك الحالة من اندر أنواع الشجاعة، فقد كانت شجاعة البطل العطشان، أما أعداءه فكانت شجاعتهم شجاعة الذئاب الجائعة..

وشتان ما بين الشجاعتين.

وكانت بطولة العبّاس تتمثّل في تمكّن الإيمان من نفسه، وقدرته على كبح جماح متطلبات جسده، وذلك هو الجهاد الحقيقي الذي سماه رسول الله «بالجهاد الأكبر».

أما أعداءه فكانت «بطولتهم» تتمثل في البحث عن إشباع نهم أجسادهم.. وامتلاء شهواتهم..

وشتان ما بين البطولتين.

لم يكن العبّاس في تلك الحالة يخاف عدوّه لأن أولياء الله لا خوفٌ عليهم ولا هم يحزنون، وكيف يخاف العدوّ من يخاف الله؟. و كيف يحزن من يكون أمله بربه، وجهاده من اجل قيمه؟ بالإضافة

الى ان العبّاس كان صاحب حميّة، وعلى قدر الحمية تكون الشجاعة ـ كما يقول الإمام علي عليه السلام .

ثم إنّ العبّاس كان كأبيه يبحث عن أفضل خاتمة يمكن أن يختم بها حياته وهي الشهادة، ذلك أن أهل البيت يعتبرون القتل لهم عادة، وكرامتهم من الله الشهادة. أما أعداءه فكان أخوف ما يخافون منه هو الموت، لأنهم كانوا يعرفون أن حياتهم تنتهي به، أما العبّاس فكان يعرف أن حياته تبتدأ بموته.

كان أهل البيت بشكل عام يخافون من أن لاينالوا الشهادة في حياتهم، ولذلك كانوا يدعون الله قائلين: «اللهم وقتلاً في سبيلك فوفّق لنا».

وقد كتب الأمام علي عليه السلام في خاتمة عهده إلى مالك الأشتر يقول: «وأنا اسأل الله بسعة رحمته، وعظيم قدرته على اعطاء كل رغبة، ان يختم لي ولك بالسعادة والشهادة، إنا اليه راجعون».

من هنا فكل معركة كانت تلوح لهم فيها بشائر الشهادة كانوا يرتاحون إليها، ويشتاقون فيها إلى لقاء الله اكثر، وما من معركة خاضوها ولم تنتهي بشهادتهم إلا وانقبضت نفوسهم خوفاً من أن تفوتهم.

ألم يبك الإمام علي عليه السلام يوم زاره النبي صلى الله عليه وآله في داره، بعد معركة أُحد التي تحمّل فيها سبعين جراحة، فقال الإمام للنبي صلى الله عليه وآله متأسفاً:

ـ «يا رسول الله أرأيت كيف حيزت عني الشهادة».

فقال له النبيّ ﷺ : «إنها من وراءك يا علي.. فكيف صبرك إذن؟»

فقال علي عليه السلام : «يا رسول الله ليس هذا من مواطن الصبر، ولكن من مواطن البشرى والشكر».

إنّ الصبر يكون على البلاء، بينما الشهادة في رؤية أهل البيت نعمة وبركة، فهي موطن شكرٍ وبشرى.

وهذا الشبل من ذلك الأسد، هاهو يلوح للعبّاس أحد النصرين: إما الشهادة، وهي رغبته.. وإما تحقيق الرسالة، وإيصال الماء إلى المخيم وهو أمله، وكلاهما عزيزٌ على قلبه، والى ايهما انتهى مصيره فإنه موضع بشرى وشكر.

من هنا فانه بالرغم من انه كان محاصراً بجيش العدوّ المتوحش، وكانت تحوطه أسنة الرماح، وتحاصره حرارة الشمس، ويمزق أحشائه الجفاف، ومع ذلك فقد أخذ يضربهم بضربات ذكّرت الناس بضربات أبيه في بدر وأحدٍ.. واستطاع بسهولة ان يشق حصار أربعة آلاف مقاتل، ويفتح فيه ثغرة عميقة في بنيانه.. وكانت الرقاب تتهاوى على شفاف سيفه، ويسقط العتاة صرعى بين يديه، كأنهم اعجاز نخل خاوية، وكان، وهو يقطع المسير ما بين النخيل نحو معسكر الحسين، كأنه أشعة الشمس تقطع ظلمات الليل.

من جانبه كان الحسين عليه السلام ممتطياً فرسه عند باب المخيم في حالة تأهب، يتصيد أخبار أخيه، يلتفت يميناً وشمالاً، لعله يرى أية إشارة لاقتراب العبّاس من المخيم ووصوله إليه، كان يتوقع في كل لحظة أن يرى طلعته الرشيدة، وقد حمل إلى أُولئك الصبية قربة مملوءة بالماء.

إنّ الحسين دون غيره، كان يعرف كم يلتذّ العبّاس من السقي، فهو الذي سُمّيَ بالسقاء، لكثرة ما حمل الماء في مناسباتٍ عديدة للناس، وربما تذكّر الحسين في تلك اللحظات، يوم كان العبّاس في الرابعة من عمره، فأظهرت زينب العطش، فما كان من العبّاس إلا ان بادر الى حمل الماء إليها، من دون أن يطلب أحد منه..

والآن فإنه يقوم بنفس المهمة.. ولكن في حجم أكبر، وفي ظروف اصعب، وفي حرّ أشدّ، وعطش مهلك..

وربما تذكّر الحسين أيضاً أيام معركة صفين، عندما سبق معاوية الى شريعة الفرات، ومنع منه أصحاب الإمام علي عليه السلام ، وكان يروم إماتتهم بالعطش او حملهم على الاستسلام.

فأرسل الإمام إليه من يذكّره بالآخرة، ويستحثّه على الاستجابة لنداء الضمير، ويبيح الماء للجميع، ولكنّ معاوية أبى.. فلم يكن من الإمام إلا أن صرخ في أصحابه قائلاً:

«قد استطعموكم القتال، ففروا على مذلّة، وتأخير محلّة.. أو روّوا

السيوف من الدماء، تُرووا من الماء، فالموت في حياتكم مقهورين والحياة في موتكم قاهرين».

وأضاف الإمام علي عليه السلام : «ألا وأنّ معاوية قاد لمّة، من الغواة، وعمّش عليهم الخبر، حتى جعلوا نحورهم أغراض المنيّة».

وهنا شنّ مالك الأشتر، يعضده كلّ من الحسين، والعبّاس، هجوماً على أصحاب معاوية وانتزعوا منهم الشريعة، وأصبحوا هم قادرين على منعهم.. وإجبارهم على الاستسلام أو الموت عطشاً، ولكن الإمام لم يعاملهم بالمثل، بل جعل الماء حقاً للطرفين.. ولما أصرّ أصحابه على أن ينتقموا منهم عملاً بقوله تعالى ﴿ **فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم** ﴾ قال الامام عليه السلام: «لا نفعل ما فعل الجاهلون».

وهكذا سقى الإمام علي عليه السلام أصحاب معاوية بعد ان منعوه الماء.

وربما تذكّر الحسين أيضاً.. كيف أنه في بداية نزوله إلى أرض الغاضريات، حلّ بعده جيشٌ قوامه ألف مقاتل من الكوفة، وكانوا عطاشى، ومتعبين، فصرف عليهم الحسين الماء الذي كان يملكه، ولم يكتفي بسقي الرجال، وإنما أعطاهم كل الذخيرة منه، لكي يرشفوا الخيل ترشيفاً، وهاهم الآن يردون جميله بمنع الماء عن نسائه وصبيته.

والغريب أن قضية منع الماء والطعام، وعملية التجويع والتعطيش،

مارسه كل من الجدّ والأب والحفيد من بني أمية، بحق الجدّ والأب والحفيد من بني هاشم.

فأبو سفيان هو الذي ضرب حصارا على رسول الله صلى الله عليه وآله في مكة المكرمة، وألجأهم إلى شعب أبي طالب، ومنع عنه وعن سائر بني هاشم، الماء والطعام والتعامل التجاري، وحتى مجرد اللقاء.

يقول الإمام علي عليه السلام : «واضطررنا إلى شعب ضيق، وضعوا علينا فيه المراصد، ومنعونا من الطعام والماء العذب، وكتبوا بينهم كتابا ان لايآكلونا، ولا يشاربونا، ولا يبايعونا، ولا يناكحونا، ولا يكلّمونا، أو ندفع إليهم نبينا فيقتلوه، أو يمثلوا به».

ثم إنّ معاوية مشى على سيرة أبيه، ومنع الإمام علي عن الماء في صفين، وهاهو يزيد يمنعه عن الحسين في كربلاء.

إنها سيرة واحدةٌ من عائلة تمثّل كل الجور، والطغيان، والنفاق، في مواجهة عائلة تمثل كل العدل، والإيمان، والخير..

لقد قال رسول الله صلى الله عليه وآله، يوم خرج الإمام علي لمجابهة الجيش الذي كان يرأسه أبو سفيان في معركة الأحزاب: «خرج الإيمان كلّه، إلى الشرك كلّه».

وبقي الإيمان كلّه متمثلاً في أهل البيت: في عليّ، والحسن، والحسين عليهم السلام وأصحابهم.. كما بقي الشرك كلّه متمثلاً في أبي سفيان ومعاوية ويزيد واصحابهم.

إنّ الحسين عليه السلام ربما تذكّر في تلك اللحظات كل تلك الحوادث، والمواجهات، وكان يعرف بالضبط أي موقف لابد ان يتخذه.. فمادام انه يمثّل كلّ الإيمان، فأنّ عليه الآن، ان يتصرف كما تصرف جده رسول الله ـ عندما قال لعمّه: «والله لو وضعوا الشمس في يميني، والقمر في شمالي، على ان اترك هذا الامر ما تركته حتى يظهره الله، او اموت دونه».

أهل البيت عليهم السلام لم يكونوا بالذين يستسلمون للباطل، حتى ولو استخدم أقذر الوسائل، وكان أقوى منهم وأقدر.. فهم يمثّلون الإيمان كلّه، ومن الإيمان أن ترد العدوان، وتقاوم الظلم وإن ادّى ذلك الى الموت عطشاً.

كان أهل البيت يمثّلون النقيض للباطل، أينما تمثّل، وفيمن تمثّل، ولذلك فهم كانوا يرفضون شنّ العدوان، ولكنهم يردّونه على نحور أصحابه مهما كانوا اقوياء.

وبمقدار ما كان أعدائهم يمثلون الصفحة السوداء من التاريخ، فإنّ أهل البيت كانوا يمثّلون الصفحة البيضاء منه: صفحة مقاومة الظالم ورفض الاستسلام له، والقبول بالتضحية بكل غالٍ وثمين، لكي تبقى قيمة الجهاد ضد الباطل واحدةٌ من أهم القيم التي لابد من التمسك بها في كل الامصار والاعصار..

كان العبّاس في تلك اللحظات يشتبك مع العدوّ، في معركة

ضارية، وهو يصك آذانهم قائلاً:

لا أَرهَبُ الموتَ إذا المـوتُ زقـا
حتى أُوارى فـي المـصاليتِ لِـقا
نفسي لسبطِ المصطفى الطهر وقى
إنـــي أنـا العـبّاس أغـدوُ بـالسِقا
ولا أخاف الموت يوم الملتقى

وباليقين فإنّ من لا يرهب الموت، فسوف يرهب منه المـوت، ومن صمّم على لقاء الله «حتى يوارى في المصاليت لِقا» فلن يجرأ أحدٌ على مواجهته.

إنّ المؤمن يحدّد سلفاً مصدر رجاءه وخوفه، وهو البـاري عـز وجل، و «من خاف الله، أخاف الله منه كلّ شيء، ومن لم يخف الله، أخافه الله من كلّ شيء» ـ كما يقول الحديث الشريف ـ.

ولقد كانت المواجهة في كربلاء بين «من خاف الله»، وبين «من لم يخف منه».. ولذلك فإنّ الواحد من الفريق الأول كان يعادل أكثر من ألف من رجال الفريق الثاني. وكانت تـلك هـي المـعادلة بـين العبّاس وبين عدوّه، عندما كان يقطع الطريق نحو المـخيم، حـيث عجز اولئك عن إيقافه بشتى الوسائل، حتى أن قادته وجدوا أن تلك المواجهة ستنتهي بوصول العبّاس سالماً إلى مخيم الحسين، ولذلك فقد خططوا للغدر به، وتلك صفة أخرى من صفات المـنافقين.. إنّ

طبيعتهم الملتوية تدفعهم إلى سلوك الطرق الخسيسة لتحقيق مآربهم، سواءٌ في حالة السلم أو في حالة الحرب، على العكس من المؤمنين الذين تدفعهم مبادئهم الحقة إلى الإستقامة في كل شؤونهم، فهم لايهادنون، ولا يغدرون، ولا يفجرون، ولا ينكّلون.

لقد كان العبّاس يرفض الاستسلام، وكان مستعداً للقتال وجهاً لوجه، حتى الرمق الأخير دفاعاً عن الحق، لكن العدو الذي كان يدافع عن الباطل، كان يتجنب مواجهته وجهاً لوجه.

كان العبّاس لا يخشى الموت، بل يرجوه، ويتمناه، بينما كان عدوّه يخاف منه ويتجنبه، ولذلك فإنّ ميزان القوة كان يميل لمصلحة العبّاس، مع انه كان وحيداً في مواجهة ذلك الجيش الذي كان يربو على ثلاثين ألفاً.

وهكذا عمد العدوّ إلى الحيلة والغدر، فقد اختفى بعضهم وراء النخيلات، بينما هجم عليه آخرون، وأخذوا يقاتلونه، وهم ينسحبون باتجاه المكان الذي اختفى فيه زملائهم، والعبّاس يتعقبهم حتى أوقعوه في كمينهم، وهنا هجم عليه من خلفه «زيد بن الرقاد الجهني»، وكان يعاونه «حكيم بن الطفيل» وبعض المقاتلين الآخرين فضربه زيدٌ بالسيف على يمينه، فأطنّها من المرفق، وقبل أن يسقط سيفه من يده، تلقفه العبّاس بيده اليسرى، واستمر يطاردهم وهو يصرخ فيهم:

واللهِ إن قـطعتموا يـميني إنّي أحامي أبداً عن ديني
وعن إمامٍ صادقِ اليـقين نجلِ النّبي الطاهرِ الأمين

كان همه في تلك اللحظات الوصول إلى المخيم ليروي عـطش النساء والأطفال. ولم يكن يهمه أن تقطع يده، فذلك لن يشغله عن هدفه، بل يزيده إصراراً على المضيّ على الطريق، في الدفاع عـن الدين ورفع الحيف عن المظلومين، ومواجهة الظالمين..

كانت الرؤية واضحة في بصيرته، فهو «يحامي عن الدين» تحت قيادة إمام «صادق اليقين» من ذرية رسول الله «الطاهر الأمين»، فلا يضيره اذن أن تقتطع يده، مادام يضمن بدلاً عنها جناحاً في الجنة.

أن العبّاس كما كان قويّ الجنان في نفسه، فأنّه كان أيضاً سريع الحركة، يعرف فنون القتال، فهو بشماله قادرٌ عـلى مـواجـهة ذلك الجمع، كما كان قادراً على مواجهته باليمين.

وبدى منظره غريباً حقاً، فقد كان يقاتل بيده اليسرى، بينما يمينه تنزف وهي مقطوعة، ومع ذلك كان اعدائه يفرّون من بين يديه وهو يقاتلهم.. ويشرّد بهم.

ولقد أشغل العدوّ بكل عدده وعدّته بنفسه، وأصبح محور القتال كله، ومرة أخرى رأى العدوّ أن مشكلتهم لم تحل مع قطع يمينه، فهم في الدرجة الأولى يريدون منعه عن الوصول إلى المخيم، وهـاهو قادرٌ بيد واحدة، أن يواصل المسير إليه، ويزيل عن طريقه كل من

تسوّل له نفسه الاقتراب منه.

من جديد توسل العدوّ إلى الغدر، فكمن مرة أخرى بعض رجاله بقيادة «حكيم بن الطفيل»، قائد الرماة، وراء بعض النخيلات، حتى إذا مرّ بها العبّاس انقضوا عليه، فأخذ بعضهم يقاتله من الأمام، وبعضهم من اليمين، مما اشغلوه حتى يستطيع «حكيم بن الطفيل»، أن يضربه على شماله، حيث قطعها من الزند، فأصبح الجرحان الكبيران ينزفان من كلتا يديه، وهو مع ذلك يواصل المسير، لعله يوصل القربة سالمة إلى المخيم. فكان يحثّ فرسه بقوة وهو يدمدم قائلاً:

يانفسُ لا تخشي مِن الكفّارِ وأبشري برحمةِ الجبّارِ
مع النبي السّيدِ المختارِ قد قطعَوا ببغيهم يسَاري
فأصلِهم يا ربِّ حرَّ النارِ

لم يمنعه العطش، والنزف، والحرّ، والألم، والعناء، من الاستمرار في مسيرته.. لأنه كان قد أقسم على رفض الباطل، حتى النفس الأخير.

كان لا يزال يشعر بثقل القربة على عاتقه، وهذا ما كان يجعله أكثر إصراراً على المضيّ في طريقه مهما كلفه الأمر.

لقد كانت حياة العبّاس في تلك اللحظات معلّقة بتلك الكميّة

القليلة من الماء، وكان كلّ أمله أن يوصلها سالمة إلى الحسين، وأهل بيته. وكان يعرف انّه في سباق شديد مع الزمن، ولهذا فأنه كان يسلك طرق النخيلات، ليتجنب خسارة القربة، بينما كان كل سعي العدوّ أن يحاول تمزيق القربة.

لقد كان سيفه عندما كان يمتلك يديه مثل عمود من النار، يمنعهم من الإقتراب إليه، أما الآن وحيث سقط السيف مع يديه، فهم قادرون على الإقتراب منه.

وهكذا حاصروه من بعيد، وأخذوا يضيقون عليه الحصار شيئاً فشيئاً، حتى اصبح على مرماهم، صبّوا عليه عاصفة من السهام.. فسهم أصاب القربة وأريق مائها، وسهم أصاب صدره ونبت فيه، وسهم مزّق عينه..

ومعروف انه لا يوجد في العالم كلّه مثل ألم العين، حيث تمتد منها الأعصاب الى الدماغ..

لقد سبّب له السهم وجعاً شديداً.. إذ ـ كما يقول الإمام علي عليه السلام : «لا وجع كوجع العين».

وأراد العبّاس ان يخرج السهم من عينه، فحاول لا شعورياً ان يرفع يده اليمنى، ولكنه تذكّر إنها مقطوعة من المرفق، ثم حاول ان يرفع اليسرى فتذكّر إنها مقطوعة من الزند..

فرفع ركبته وأحنى رأسه، محاولاً ان يمسك بركبته عقب السهم

ويخرجه من عينه..

ولما رأى أعدائه المتوحشون انشغال البطل بنفسه، استغل واحد منهم انحنائة رأسه فرفع عموداً من الحديد، وأهوى بها، بكل ما فيه من قوة، على هامته، حيث فلقها من القمة..

لقد تشابهت تلك الضربة على أُمِّ رأسه، مع الضربة التي أهوى بها ابن ملجم على رأس الإمام علي عليه السلام ليلة التاسع عشر من رمضان..

وهكذا هوى العبّاس بوجهه من على الفرس إلى الأرض وهو ينادي: «السلام عليك يا أبا عبدالله».

كانت لحظة صعبة في حياة الفارس البطل، ذلك ان من يسقط من علٍّ، فأنه عادةً ما يتلقى الأرض بيديه لكن العبّاس لم يكن يملك يداً، وكان بالإضافة الى ذلك يعاني من جرح عميق في عينه، وجرح أعمق في رأسه، وآخر في صدره، ولذلك فأنه عندما سقط تلقى الأرض بوجهه.

وقبل أن تعرج روحه الزكية إلى بارئها، امتلكته عاطفتان متناقضتان:

عاطفة الحزن على تمزّق القربة، واليأس من وصول الماء إلى الأطفال، الذين كانت أصواتهم لاتزال ترن في أذنه قائلين: «العطش.. العطش».

وعاطفة الفرحة بلقاء الله تعالى، حيث ينتظره رسول الله، وصحبه

الأبرار.

وفيما كان الأعداء يتنفّسون الصعداء بسقوطه، الأمر الذي كان يُسهّلُ عليهم الطريق لحسم المعركة بقتل الحسين، كان العبّاس يلفظ آخر أنفاسه الزّاكيّات، وعينه السالمة تلاحق قطرات الماء التي اريقت من القربة واختلطت بدماءه الطاهرة، لتغوص قليلاً، قليلاً، في رمال كربلاء، وتخطّ قصة واحدة من أعظم ملاحم البطولة، والوفاء، والإيثار، في التاريخ.

لقد سقط العبّاس شهيداً وهو عارف بما للشهيد من أجر عظيم عند الله، وقد كان يتلو في كتاب الله قوله تعالى: ﴿**فليقاتل في سبيل الله الذين يشرون الحياة الدنيا بالآخرة، ومن يقاتل في سبيل الله فيقتل أو يغلب فسوف نؤتيه جراً عظيماً**﴾، وهو الذي سمع أخاه الحسين يقول: «إني لا أرى الموت إلا سعادة والحياة مع الظالمين إلّا برما».

لقد كان العبّاس من الذين كانوا ﴿**فرحين بما أتاهم الله من فضله، ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم، ألّا خوفٌ عليهم ولا هم يحزنون، يستبشرون بنعمة من الله وفضل، وإنّ الله لا يضيع أجر المؤمنين، الذين استجابوا لله والرسول من بعد ما أصابهم القرح، للذين أحسنوا منهم واتقوا أجرٌ عظيم.. الذين قال لهم الناس إنّ الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم ايماناً، فقالوا: حسبنا الله**

ونعم الوكيل، فانقلبوا بنعمة من الله وفضل، لم يمسسهم سوء واتبعوا رضوان الله، والله ذو فضل عظيم ﴾ فهو لم يخشَ الناس وقد جمعوا له، واستجاب لله وللرسول من بعد ما أصابه القرح.. وهاهو بعد تلك اللحظة، لم يمسسه سوء، فقد ذهب إلى ربه طاهراً نقياً ليصبح رمزاً لبطولة الروح وشجاعة السيف.

كربلاء..

ساحة المواجهة

بين الحق والباطل

ترى كيف وقعت تلك النهاية المأساوية لذلك البطل العظيم؟ لكي نعرف ما جرى لابد أن نفهم الأسباب والجذور. ذلك أن أي حدث ليس منفصلاً عن تاريخه. فالمجابهة التي وقعت بين الحسين ويزيد لم تكن منفصلة عن الحوادث التي سبقتها، فيزيد أساساً إنما وصل إلى الخلافة نتيجة ظروف معينة، ساهمت إرادات جاهلية في تهيئتها، وكانت خلافته نتيجة منطقية لها.

أما الحسين عليه السلام فكان من جهته يمثّل جبهة ممتدة منذ بداية الخليفة إلى نهايتها. فكربلاء كانت ساحة المواجهة بين الحق والباطل، تمثلت في جهتين، توغلتا في التاريخ القديم لتصل الى كل ساحات الامتحان الإلهي السابقة، التي حدثت قبلها..

فإذا بجبهة يزيد تمتدّ لتتصل الى قابيل، ونمرود، وفرعون، وبني إسرائيل، وأبى سفيان، ومعاوية، وبني أمية جميعاً.. وإذا بجبهة

الحسين عليه السلام تمتد لتتصل بهابيل، وإبراهيم، وموسى، وعيسى، ومحمّد، وعلي، وفاطمة، والحسن، وأهل البيت جميعاً ـ صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين ـ.

وهما الجبهتان المتصارعتان أبداً، من اللحظة الأولى لوجود أول إنسان على هذه الارض، الى آخر من يعيش عليها.

وبمقدار ما كانت الجبهة الأولى تمثّل كل نوازع الشرّ، متمثلة في رجال من لحم ودم..

فإنّ الجبهة الثانية كانت تمثل كل نوازع الخير، متمثلة في رجال من لحم ودم، كذلك..

وبمقدار ما كان الحق الإلهي والطبيعي لجبهة الخير في ان تقود المجتمع.. بمقدار ما كان من واجبها ان تقارع الجبهة الأخرى التي اغتصبت القيادة، وظلمت العباد، وأفسدت البلاد، وعصت الرّب، وشرّدت بأهل الحق..

وجاء مقتل الحسين ـ وهو إمام جبهة الحق، على يد يزيد ـ وهو إمام جبهة الباطل ـ كنتيجة منطقية لخلع الإمام عليّ، عن سدة الخلافة مرتين، بعد أن نصبه الله مرتين على يد رسوله، وبايعه الناس مرتين أيضاً.

وفي الحقيقة فإننا قلّما نجد ان تجتمع في أحد من الزعماء كلتا الخصلتين:

تعيين الله.. ومبايعة الناس.

لأن الخلفاء ورؤساء الدول إمّا أن يكون الناس قد بايعوهم، من دون أن يقبل الله ببيعتهم، أو يجبرهم على شيء ﴿**أنلزمكموها وأنتم لها كارهون**﴾ وهو النوع الشائع عادةً في المجتمعات البشرية، وإما أن يكون الله قد عيّن أحداً، ولكنّ الناس خالفوه وعصوه، تماماً كما أن الله يعيّن رسله ليطاعوا بإذنه، ولكن ما من نبي أو وصيّ نبي إلا ويخالفه اهل الدنيا، المستسلمون لشهواتهم.

فقد جرى في غدير خم نصبُ عليٍّ عليه السلام بأمرٍ من الله عزوجل على يد رسولُ الله تنفيذاً، لقوله تعالى: ﴿**يا أيها الرسول بلّغ ما أنزل إليك من ربّك، وإن لم تفعل فما بلغت رسالته، والله يعصمك من الناس**﴾ وبايعه المسلمون في ذلك الموقع، وكان النبي شخصياً يشرف على ذلك، وقد اشترك الصحابة كلهم في المبايعة، ولكن جرى خلعه من الخلافة بعد وفاة رسول الله.

ومرةً أُخرى بايع الناس علياً بعد مقتل الخليفة الثالث.

ولكن تمرّد عليه الناكثون، والقاسطون، والمارقون..

ثم تمَّ خلعه، بعد ذلك من قبل المتآمرين عليه، في عملية التحكيم المعروفة، الذي اعلنه ممثلهم ابو موسى الأشعري.

وهكذا فقد بويع عليٌّ مرتين، وتم خلعه من الخلافة مرتين كذلك، وكان واضحاً أن قوى الردّة الجاهلية تتربص الدوائر بأهل البيت،

وتبحث عن أية فرصة للقضاء على شخصيتهم المعنوية، ووجودهم المادي معاً.

فقام بالمهمة الأولى ـ وهي محاولة القضاء على أهل البيت عليهم السلام معنوياً ـ معاوية بن أبي سفيان خلال الفترة التي اغتصب فيها الخلافة، بأسوأ ما يكون، فقد كتب إلى ولاته أمراً صريحاً يقول: «انظروا إلى من روى حديثاً في فضل أبي تراب.. فألغوه من الديوان»، وأمر جلاوزته بسحق شيعة علي وأتباعه، في أمره الصريح، القائل: «خذوهم بالتهمة واقتلوهم بالظنة»!!

بينما أكمل المهمّة الثانية ـ أي القضاء على وجود أهل البيت المادي ـ ابنه يزيد بأبشع ما يكون في كربلاء، وكانت أوامره صريحة في ان يقتلوا الحسين وأصحابه، وأن يجروا الخيل على أجسامهم بعد ذلك، وان تقطع رؤوسهم، وتسبى ذراريهم، حتى لا تبقى منهم باقية.

ولم يكن ما حدث هو نتيجة رفض الحسين لخلافة يزيد.. ذلك أن الحسين سبق وأن رفض البيعة لأبيه معاوية، من دون ان يحدث له شيء.

ومن السذاجة أن نتصور بأن القضية كانت تنتهي لو أن الحسين لم يكن يتحرك من مدينة رسول الله ويهاجر إلى مكة، ثمَّ يهاجر من مكة باتجاه الكوفة..

إنّ الصراع بين الحق والباطل ليس صراعاً آنيّاً، بحيث يحكمه الزمان والمكان، بل هو صراعٌ أبدي، يستمر عبر الأجيال كلها.

فلا يتمثل الحق في أحد، إلا وينبري اهل الباطل لمواجهته.. وصدق الحسين الذي قال «والله لو وجدوني في جحر، لأخرجوني منه حتى يريقوا دمي».

إنّ دهاة السياسة الأموية وجدوا فرصتهم السانحة، للقضاء على أهل البيت عليهم السلام في عصر الحسين بسبب تقلص أهل الحق، حتى اقتصروا على ثلاثة وسبعين رجلاً، من كل الألوف المؤلّفة من المسلمين، فقد كانت الردّة الجاهلية قد ضربت في العرض والطول معاً، وشملت الرؤوس كما شملت الناس العاديين.

ولم تكن الردّة، مجرد ردّة عن الشعارات، وإنما كانت ردّة عن الأهداف والمُثل.

كانت ردّة عن التقوى، أمّا الشعارات فقد بقيت على حالها.

فلا يضير أهل الباطل أن يحملوا شعارات الحق، ويمارسوا تحتها ما يشاءون، ويفعلوا ما يريدون؟

ومن المعلوم إنّ الردّة الظاهرية يمكن قمعها بسهولة، ولكن المشكلة هي في الردّة الباطنية، لأنها ردّة خفية.. ولذلك فأنها تختلف عن الردّة العلنية في خطورتها، وتتجاوزها في اثارها.

فتلك الردّة التي يقتل فيها رجالٌ من امثال أبي ذر الغفاري منفياً،

غريباً، لأنه كان يحذّر الناس من احتكار مال الله.. ومن امثال عمار بن ياسر، وقد تجاوز عمره التسعين عاماً، لأنه رفض ان يهادن أمثال عمرو بن العاص.. ومن امثال محمد بن ابي بكر، الذي احرقت جثته في جلد حمار على يد جلاوزة معاوية.

والتي تُراق فيها دماء المسلمين في معارك الجمل وصفين تحت شعار: «الانتقام لمقتل عثمان»، من دون ان يسأل أحد: «هل أن مقتل شخصٍ واحد، يتطلب الانتقام من أكثر من مئة وثلاثين ألف من الرجال؟!»

تلك الردّة لم تكن ردّة عن الشعارات، بل عن جميع القيم، والاصول، والتعاليم التي جاء بها الاسلام.

لقد كشف رسول الله صلى الله عليه وآله عن وقوع تلك الردّة، وصرح بذلك في أكثر من موقع حيث قال في الحديث المجمع عليه: «يرد عليّ الحوض رجال من أمتي، فيحلئون عنه، ويؤخذ بهم ذات اليمين وذات الشمال فأقول: يا رب أصحابي..

فيقال: انك لا تدري ما أحدثوا بعدك، انهم لم يزالوا مرتدّين على أعقابهم منذ فارقتهم..

فأقول كما قال العبد الصالح: ﴿**وكنتُ عليهم شهيداً ما دمتُ فيهم، فلما توفيتني كنتَ أنت الرقيب عليهم، وأنت على كل شيء شهيد**﴾».

وقد أحدثوا بعد النبي صلى الله عليه وآله، الردّة عن تعليماته عندما نسوا الآخرة واقبلوا على الدنيا ومباهجها، وحاربوا اهل بيته وقتلوهم، وشرّدوهم، وتلاعبوا بمال الله، واتخذوه دولاً، وعباده خولاً.

انها الردّة التي كان يخافها رسول الله صلى الله عليه وآله على قومه عندما قال:

«ألا وإني لا أخاف عليكم مؤمناً، ولا كافراً.. أما المؤمن فيمنعه الله بإيمانه، وأما الكافر فيقمعه الله بكفره، ولكنني أخاف عليكم كل منافق لذق اللسان، يقول ما تعملون، ويفعل ما تنكرون».

لقد وجد النبي صلى الله عليه وآله بدايات تلك الردّة في حياته، وعبّر عنها يوم مال إلى الكعبة بعد حجة الوداع، فجلس في ظلها، واخذ يلاحظ مظاهر الغنى على بعض الناس، ومظاهر الفقر على الباقين.. وجاءه أبو ذر فوجده يتلو قوله تعالى: ﴿**والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله، فبشّرهم بعذاب أليم، يومُ يحمى عليها في نار جهنّم، فتكوى بها جباههم، وجنوبهم، وظهورهم. هذا ما كنزتم لأنفسكم، فذوقوا ما كنتم تكنزون**﴾.

ثم مال صلى الله عليه وآله إلى أبي ذر وقال:

«هم الأخسرون وربّ الكعبة».

فقال ابو ذر: «من هم يارسول الله»؟

قال صلى الله عليه وآله: «الأكثرون أموالاً!. ما من صاحب إبل، ولا بقر ولا غنم لا يؤدّي زكاتها، إلا جاءت يوم القيامة أعظم مما كانت وأسمن،

تنطحه بقرونها، وتطأه بأظلافها، كلّما نفذت أخرى عادت عليه أولاها حتى يقضى بين الناس».

ومع ذلك فإنّ كثيراً من أصحاب رسول الله، جمعوا الملايين، فترك «زيد بن ثابت» من الذهب والمعادن ما كسّروه بالفؤوس بعد موته، وجمع «عبد الرحمن بن عوف» عشرات الألوف من الإبل والغنم والبقر، وكان «لطلحة» مئات من الإماء والعبيد.. و «للزبير» العديد من القصور في مختلف الأمصار!!

وكانت تجري الصفقات بينهم في السر، ليس على قطعة من الأرض فحسب، وإنما على المقاطعات.. ولم تكن صفقة معاوية مع عمرو بن العاص على اقتطاع مصر كلها لعمرو، ثمناً للمشاركة في الحرب ضد الإمام علي عليه السلام بالصفقة اليتيمة الشاذة فيما بينهم، وإنما كانت واحدة من ألوف الصفقات التي تمت بين اركان جبهة النفاق، لمواجهة جبهة الحق.

وكانت تلك الأموال ومواقف الحاكمين قد أفسدت ضمائر الناس، ومن هنا فأن غالبية الناس اخذوا يميلون مع الباطل بدلاً من التمسك بالحق، وكان الجميع يؤثرون الدنيا على الدين، ويعملون مع الطغاة من اجل المصالح.

كان العصر قد تغيّر جذرياً، فالبذور التي تم زرعها بعد وفاة رسول الله، أصبحت شجرةً باسقةً في زمن معاوية، وأخذت تعطي

ثمارها المرّة في عهد يزيد.

إنّ يزيد بن معاوية ـ على عكس ما يحاول البعض تحميله على التاريخ ـ لم يكن حالةً شاذةً، أو طارئةً على الظروف الموضوعية في ذلك العصر، وإنما كان نتيجة ردّة سُبقتها بأكثر من أربعين عاماً.

فيزيد هو ثمرة انتصار معاوية.. ولكن السؤال هو كيف انتصر معاوية؟ هذا العجين الذي اختزل في داخله كل نوازع الجاهلية الأولى؟ فكان يغدر ويفجر، ويعمل الموبقات، بينما كان يجلس مجلس رسول الله صلى الله عليه وآله ويحكم باسمه وهو الطليق ابن الطلقاء؟.

ترى هل أن معاوية كان صالحاً قبل مقتل الخليفة الثالث، ثم صار بخلاف ذلك بعد توليه الخلافة؟.

أم أنه منذ البداية كان يمثّل دور أبيه في محاربة رسول الله وأهل بيته؟

ثم هل كان معاوية وحده، أم انه كان عضواً في مجموعة؟

إنّ معاوية لم يكن يحمل في جوفه قلبين، ولم تكن له طريقتان في الحياة ومنهجان في الحكومة.

معاوية الذي اعتمد في تدعيم حكمه على المكر والخداع والدجل والكذب وشراء الضمائر، ولا كان يتعفف عن استخدام القتل بالسيف أو بالسم لخيرة صحابة رسول الله، ولا كان يتورع عن ارتكاب الفجور والخيانة ونقض العهد، هو نفسه الذي كان والياً على

الشام قبل أن يتولى الإمام علي الخلافة بعشرة أعوام.

ومن غير المنطقي أن يعتبر المرء يزيد رجلاً سيئاً، ولا يعتبر أباه معاوية مثله!، ولا أن يدين معاوية من غير أن يدين من ولّاه الشام، أو أمضى ولايته وثبته فيها، وزاد في منطقة نفوذه، بضم فلسطين وحمص الى مملكته. ولا أن يدين من قلّده الولاية، من دون ان يدين من ولّى الذي قلّده ذلك انّ الثمرة الفاسدة تكشف عن فساد الجذور.

إنّ الحق لا يتجزأ، فلا يصبح نصفه باطلاً.. وكذلك الباطل لا يتجزأ هو الآخر فلا يمكن ان يكون نصفه حقاً!.

فإذا رأينا أنَّ الحسين يُقتل في كربلاء، انتقاماً لشيوخ الكفر، الذين قتلهم رسول الله في بدر وأحد، فلابد أن نعرف عمق تلك المؤامرة، وجذورها التاريخية، لأن الحوادث لا تقع اعتباطاً، كما لاتنمو ثمرة مرّة إلا من شجرة خبيثة..

ان معاوية لم يكن أوّل من حوّل الخلافة إلى ملكٍ عضوض يتوارثه الابن عن أبيه.

ولا كان أوّل من استخدم الدين كوسيلةٍ لتدعيم حكومته، ولا أوّل من استخدم أموال الناس في إحكام سيطرته على العباد والبلاد، بل إنه جنى ثمار مؤامرةٍ سابقة على ذلك، وهي المؤامرة التي انتهت الى قتل الحسين عليه السلام في «يوم عاشوراء».

ومن هنا نعرف لماذا يستطيع واحد من أرذل خلق الله، وهو عبيدالله بن زياد ابن أبيه، أن يجمع لقتال الحسين، وهو سيد شباب اهل الجنة بنصّ رسول الله، مالا يقل عن ثلاثين ألف من الرجال، وأن يعبّأ العالم الإسلامي كلّه ضد أهل البيت، من غير رادع أو معترض؟، وأن يرسل رؤوس الشهداء والأسرى من بلدٍ إلى بلد، كأنهم أُسارى تركٍ أو ديلم ـ كما تقول زينب عليها السلام ـ.

إنّ كل الذين التفوا حول يزيد كانوا طلّاب الدنيا، أما الذين التفوا حول الحسين فكانوا طلّاب الآخرة.

كان مع الحسين أهل الحق، وكان مع يزيد أهل الباطل، والسؤال الرئيسي الذي يطرح نفسه هنا هو: «كيف أثيرت في النفوس النوازع الشرّيرة بتلك الصورة، بعد أن كان رسول الله صلى الله عليه وآله قد أثار فيهم النوازع الخيّرة؟

وكيف انقلبت الموازين، حتى اصبح المنكر معروفاً.. والمعروف منكراً؟!.

حقاً لقد كان الصراع بين الحسين ويزيد واحداً من الحوادث النادرة في التاريخ، حيث ظهر الحق بكل صفاته، وروحياته، وشجاعته، وفضائله، متمثلاً في مجموعة صغيرة وهم اهل البيت، في مقابل الباطل بكلّ صفاته، وروحياته، ونفاقه، ورذائله، متمثلاً في مجموعة واسعة من الرجال، ومن هنا تظهر قيمة واحدة من أعظم

صفات العبّاس، وبقية صحابة الحسين، وهي صفة «النصيحة لله ولرسوله» فقد أعطوا «كلّهم» للحسين، وشرحت له بالطاعة صدورهم، ونفذت في جهاد عدوّه بصائرهم. ليس لأي اعتبار من الاعتبارات الدنيوية، بل للأعتبارات الإلهية فحسب.

فقد كانوا يرون في الحسين عليه السلام «الولي المطاع» ويرون أنفسهم «الولاة الأتباع».. لقد تجمعوا حول الحسين، ليس لأنه أكبرهم عمراً وأكثرهم تجربة، بل لأنه كان أعلمهم في الله، وأقربهم إلى النبي، واخبرهم في الدين، وأعظمهم حقاً، وأفضلهم مناقب، وأكثرهم إيماناً. وتلك هي المقاييس الحقة، الخالية من كل دنس، المبرئة من أية شائبة.

أما حوافز جند يزيد فقد كانت مادية بحتة، ولذلك فان الصرع بينهما كان صراعاً بين منطقين: منطق الولاية لله، ومنطق السلطة الذائبة في المصلحة، فكان جند يزيد يقاتلون من أجل النصر وأما جند الحسين فيقاتلون من أجل الشهادة، ولقد حصل كل فريق على ما كان يبغي ويريد ﴿من كان يريد العاجلة، عجّلنا له فيها ما نشاء لمن نريد، ثم جعلنا له جهنم يصلها مذموماً مدحوراً، ومن اراد الآخرة وسعى لها سعيها، وهو مؤمن، فاؤلئك كان سعيهم مشكوراً، كلا نمد هؤلاء، وهؤلاء من عطاء ربك، وما كان عطاء ربك محظورا﴾.

﴿فمنهم من يقول: ربنا آتنا في الدنيا حسنة، وما له في الآخرة من خلاق.. ومنهم من يقول ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار﴾.

وإذا أخذنا بعين الاعتبار إنّ الإنسان يختار العاقبة، قبل أن يختار العمل، فبهذا يكون أصحاب الحسين قد اختاروا الجنة، بينما اختار أصحاب يزيد حطام الدنيا، وكان للقادة في كلتا الجبهتين الكأس المعلّى، فلشمر بن ذي الجوشن الدرك الأسفل من النار.. وللعبّاس بن علي عليه السلام جناحان يطير بهما في الجنة، كما كان لعمه جعفر بن أبي طالب، الذي قتل في معركة مؤته جناحان يطير بهما في الجنة.

يقول الإمام السجاد عليه السلام: «رحم الله عمّي العبّاس، فلقد آثر، وأبلى، وفدى أخاه بنفسه، حتى قطعت يداه، فأبدلهما الله بجناحين يطير بهما مع الملائكة في الجنة، كما جعل لجعفر بن أبي طالب، وإنّ للعبّاس عند الله تعالى منزلة يغبطه عليها جميع الشهداء يوم القيامة».

وتلك نتيجة منطقية، لما اختاره العبّاس في جبهة الحق، ولما تحمّله في أشد ظروفها، وأكثرها ضعفاً.

ولذلك اصبح العبّاس علماً، وسيبقى علما الى مدى الدهر، لأن تلك الظروف قد لا تتكرر في تاريخ البشرية.. حيث تكون الفتنة شاملة، ويكون المرء بين أمرين إما أن يموت عطشاً، وتقطع يداه، وتسبل عيناه، ويضرب بعمود من حديد على رأسه، ويشقّ بالسهم

صدره..

وإما أن يبايع الباطل، ويستسلم للظلمة، ويشارك معهم في طغيانهم.

أن آيات الكتاب، وسنة النبي، وتعليمات وصيّه، كانت دائماً مدّ نظر العبّاس عليه السلام، وهي التي كانت توجهه في المواقف الصعبة، وكان رضا الله تعالى، وطلب الأجر منه، على رأس قائمة الأهداف التي كانت قد صبغت حياته في كل مراحلها، ولذلك فأنه لم يكن يتردد في اختيار أصعب الخيارين إذا كان الثواب فيه أكثر..

وقد وضع العبّاس وصية أبيه على فراش الموت نصب عينيه، وهي الوصية التي خاطب فيها الحسن والحسين وبقية بنيه قائلاً: «أوصيكما وجميع ولدي، ومن بلغه كتابي هذا، بتقوى الله، وأن لا تبغيا الدنيا وإن بغتكما. قولا بالحق، وأعملا للأجر، وكونا للظالم خصماً، وللمظلوم عوناً».

وأصبحت تلك الوصية منهج أولاد علي عليه السلام في حياتهم على طول التاريخ.. بها عاشوا، وعليها ماتوا، فكانت تقوى الله تعالى هي هدفهم، ومبتغاهم، ومنهجهم في العمل.. وكان قول الحق، في كل موقف وقفوا فيه ملىء أفواههم.. وكان العمل للأجر اختيارهم المفضل في الحياة.. ولم يبغ أحدٌ منهم الدنيا، وإن بغته.

وكانوا جميعاً للظالمين خصماء، وللمظلومين أعوان.

هذا هو العبّاس، يبحث عن الأجر والثواب في كل مواقفه وأعماله، فقد ذكر المؤرخون أنه لما رأى كثرة القتلى من أهله، توجه لأخوته من أبيه وأمه وهم عبدالله، وجعفر، وعثمان، وأمهم هي «أم البنين» وقال لهم: «يا بني أمي تقدّموا، حتى أراكم قد نصحتم لله وللرسول.. تقدّموا بنفسي أنتم، حتى أراكم قتلى فأحتسبكم، وأثاب بكم».

لقد كان العبّاس في قمة المروءة والشهامة، وكان المتوقع من مثله، أن يمنع اخوته من القتال، حتى يفديهم بنفسه ويكون هو أول من يقتل منهم، ولكنه قدّم «العمل للأجر» على رغبته الشخصية في أن يقتل دونهم.

كان يريد أن يراهم، وقد جاهدوا في سبيل الله، وقاتلوا، وقتلوا، فيصاب بمصيبتهم، ويوفيه ربّه أجر الصابرين، الذين قال فيهم: **﴿الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا: إنّا لله وإنا إليه راجعون، أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة، وأولئك هم المهتدون﴾**.

وكان العبّاس في ذلك يقلّد رسول الله الذي كان إذا أحمرّ البأس، قدّم أهل بيته، فوقى بهم أصحابه، حرّ السيوف والأسنة، فقتل «عبيدة بن الحارث بن عبد المطلب» يوم بدر. وقتل «حمزة بن عبد المطلب» يوم أحد، وقتل «جعفر بن أبي طالب» يوم مؤتة ـ كما يقول الإمام علي عليه السلام.

وهكذا فقد عمل أخوة العبّاس بوصيته، فبرز «عبدالله بن علي» وكان عمره خمسة وعشرين عاماً، وأخذ يقاتل وهو يرتجز قائلاً:

أنا ابنُ ذي النجدةِ والأَفضالِ ذاكَ عـليٌّ الخـير ذو الفـعِالِ
سيفُ رسـولِ اللهِ ذوُ النكَـالِ في كلِّ يومٍ ظـاهرِ الأهـوالِ

فبارزه من جند يزيد «هاني بن ثـبيت الحـضرمي» فـاستشهد عبدالله على يده.

ثم برز أخوه «جعفر بن علي»، وعمره تسعة عشـر عـاماً وهـو يرجز قائلاً:

إنّـي أنـا جـعفر ذو المـعالي ابـنُ عـليٍّ الخـيرِ ذو النَّـوالِ
حسـبي بـعمّي شـرفاً وخـالي أحمي حسيناً ذا الندى المفضالِ

فحمل عليه «هاني بن ثبيت الحضرمي» أيضاً فقتله، وبـاء هـذا الخبيث بدم إثنين من أولاد أمير المؤمنين في ساعة واحدة.

ثم برز بعدهما «عثمان بن علي»، وهو الذي قال فيه أبوه: «إنما سميته باسم أخي عثمان بن مظعون». لكي يتذكر به ذلك الصـحابي الجليل، وقام عثمان مقام أخوته وكان عمره واحداً وعشرين عاماً وأخذ يرتجز قائلاً:

إني أنـا عـثمانُ ذو المـفاخِر شيخي عليٌّ ذوُ الفعالِ الطاهِر
بَعدَ الرسولِ والوصِّي الناصِر

أخي حسينٌ خيرةُ الأخاير وسيِّد الكبارِ والأصاغِر

فرماه «خولي بن يزيد الأصبحي» على جبينه فسقط عن فرسه، وحمل عليه رجلٌ من بني أبان ابن دارم فقتله وحزّ رأسه الشريف.

انه ولاشك من الصعب أن يرى المرء اخوته وهم يقتلون واحداً بعد واحد.. فليس اصعب على الغيور من مقتل أعزائه أمام عينيه. ولكن حينما يكون ذلك من أجل الحق، فإنّ الثواب يزداد لكل مصيبة ترد عليه، ويبدو أن العبّاس كان يريد أن يتحمل في كربلاء كل الشدائد المتصورة، بما فيها فقدان كل اخوته، في يوم واحد، ليزداد بذلك أجره، ويكتب له أكبر قدرٍ ممكن من ثواب الله المكتوب للصابرين في البأساء والضراء، سواءً فيما يرتبط بنفسه الزكية، أو فيما يرتبط بأخوته..

وفي الحقيقة، فإنّ العبّاس عليه السلام كان يمتلك من الإيمان، والبسالة، وقوة الإرادة وحسن الإدارة، بحيث كان يقوم بالمهمات الأصعب، في معسكر كل مهماته كانت صعبة، وبالذات في مسألة الحصول على الماء، ذلك أن العدوّ بدأ حصاره الجائر على أهل البيت، من اليوم السابع من المحرم، فقد كملت عليهم في ذلك اليوم دائرة حصار الأسنّة والرماح، وحصار الجوع والعطش، واكتملت بذلك الهجمة الشرسة على مسيرة رسول الله صلى الله عليه وآله، تلك الهجمة التي بدأت بحرق باب دار فاطمة، وإسقاط جنينها. وانتهت إلى محاصرة سيد شباب

أهل الجنة وأصحابه في كربلاء، وتجويعهم ومنع الماء عنهم، ثم القيام بذبحهم واحداً بعد واحد.

وكان كلما اشتد الحصار على أهل البيت، يلتجأون الى قمر بني هاشم حيث كانت كفه أملهم الوحيد في الملمات.. وهذا ما دفع الحسين عليه السلام إلى الطلب منه القيام بمحاولة الحصول على الماء، فقاد العبّاس ثلاثين فارساً وعشرين راجلاً، وحملوا معهم عشرين قربة، وتقدم أمامهم «نافع بن هلال الجملي»، واتجهوا نحو المشرعة في مساء يوم السابع من المحرم.

على الطرف الآخر، كان «عمرو بن الحجاج» يقود جند يزيد لحراسة الماء، ومع اقتراب نافع بن هلال، صاح «عمرو بن الحجاج»: «من الرجل؟ وما جاء بك؟».

فقال نافع: «جئنا لنشرب من هذا الماء الذي حلئمونا (أي منعتمونا) عنه».

فقال له عمرو بن الحجاج: «اشربوا ما شئتم، ولا تحملوا معكم».

فقال نافع: «أفنشرب والحسين وأهله عطاشى!؟ لا والله لا أشرب منه قطرة، والحسين ومن ترى من آله وصحبه عطاشى».

فقال عمرو بن الحجاج: «لا سبيل إلى سقي أولئك». وأضاف: «إنما وُضعنا بهذا المكان، لنمنعهم عن الماء».

لقد كان قرار المنع واضحاً لا لبس فيه، ولم يكن ينفع مع أولئك

الأوغاد الحديث بالكلمة الطيبة، والجدال بالتي هي أحسن..

ولذلك فأن العبّاس بادر الى تقسيم من كان معه إلى قسمين: قسمٌ يقوم بإشغال العدوّ بالقتال، وقسمٌ يقوم بملىء القرب من الماء.

وهكذا كان.. فقد ملأوا قربهم جميعاً، وانطلقوا نحو معسكر الحسين، ولم يكن أحدٌ يجرأ على التصدي لهم، خوفاً من قمر بني هاشم عليه السلام.

وكان ذلك آخر ما حصلوا عليه من الماء في كربلاء حتى مقتلهم يوم العاشر من المحرم.

ولقد أثارت شجاعة العبّاس تلك، وبسالته ونجاحه في إيصال الماء إلى حرم رسول الله صلى الله عليه وآله عواطف الشعراء، فنظموا القصائد الكثيرة في ذلك، ومنها قصيدة السيد الحلي التي يقول فيها:

أوَ تشتكي العطشَ الفواطمُ عندَهُ ... وبصدرِ صعدتِهِ الفراتُ المفعمُ

ولو استقى نهر المجرّة لارتقى ... وطويلُ ذابلهِ إليها سُلَّمُ

لو سدَّ ذُو القرنين دونَ ورودِه ... نسفته همتُهُ بما هُو أعظمُ

في كفِّه اليُسرى الفِقار يقلّهُ ... وبكفِّه اليُمنى الحسامُ المِخذَمُ

مثل السحابةِ للفواطمِ صوبُهُ ... فيصيب حاصبه العدوّ فيرجمُ

* * *

في يوم عاشوراء كان العبّاس، صاحب النجدة الاكبر، حيث كان يقوم بنجدة الأصحاب، كلما دارت عليهم الدائرة واصبحوا في

موقف حرج.. و كان يكفي أحياناً أن يقترب العبّاس من الأعـداء، ليهربوا عنه، ويتم فك الحصار عمن دارت عليه الدائرة.

فقد كانت له مثل صولات أبيه، وكما كانت ضرباته مثل ضرباته.. فقد كانت كلمة «جائكم العبّاس» مثل «جائكم عليّ» تكفي لكـي يطلق العدوّ رجليه للريح ويهرب، أو يكشف عن سوئته للملأ لينجوا بنفسه.

وقد حدث أن جماعة فيهم «عمرو بن خالد الصيداوي» ومولاه «سعد» و «جابر بن الحـارث السـلماني» و «مـجمع بـن عـبدالله العائذي» شدّوا ـ بعد الجولة الأولى مـن القـتال التـي سـقط فـيها خمسون قتيلاً من أصحاب الحسين ـ على جنود يزيد فلمّا أوغلوا فيهم، عطف عليهم كل الجند، وقطعوهم عن رفاقهم..

وهنا انتدب لهم الحسين أخاه العبّاس، فحمل ابو الفـضل عـلى العـدوّ، واسـتطاع ان يـفك بـمفرده الحـصار عـن أولئك الرجـال ويستنقذهم بسيفه. وكانوا قد جرحوا جـميعاً.. ألا أنـهم فـي أثـناء الطريق رفضوا أن يعودوا إلى المخيم لكي يستريحوا، بل استعجلوا دخول الجنة، وكانت استراحتهم على أبوابها، فقد تـعرضوا لهـجوم مضاد شنّه العدوّ عليهم فقاتلوا بأسيافهم، مع ما بهم من جراح، حتى قُتِلوا جميعاً في مكانٍ واحد.

كربلاء..

ملحمة التاريخ الغريبة

لقد كانت ملحمة عاشوراء من الملاحم الغريبة في التاريخ، حيث كان يلتحم عدد لا يتجاوز الثمانين، وهو في حالة تناقص مستمر، مع جيش مجهز ضخم يتجاوز عدده الثلاثين ألفاً. وبينما كان أصحاب الحسين معهم الأطفال والنساء وبعض المرضى والشيوخ، كان أعدائهم من المقاتلين الشباب، وكان فارق العمر يميل لصالح العدوّ، كما كان فارق العدد والعدة كذلك، بالإضافة إلى القرب من القيادة في الكوفة، فعمر بن سعد قائد جيش يزيد، لم يكن يتجاوز الأربعين من عمره بينما كان الحسين عليه السلام في نهاية الخمسينات، وبينما كان الحسين مقطوعاً عن المدينة المنورة التى قدم منها، فقد كان جند يزيد قريبين إلى مركز التموين، كما انهم كانوا يمتلكون شريعة الماء التي حُرم منها أهل البيت، ومن المفترض في مثل تلك المواجهة غير المتكافئة، أن يستطيع العدوّ، بما يملك من عوامل

التفوق حسم المعركة بالشكل الذي يريد خلال ساعة من نهار ليس اكثر.. إلا أن فارق الإيمان، والبسالة، والشجاعة، وحسن القيادة التي كان يتمتع بها أصحاب الحسين، منعتهم من تحقيق مآربهم، فطالت المعارك إلى ما بعد العصر، وفشل العدوّ في محاولاته المتكررة لإخذ أصحاب الحسين أسارى إلى الشام، كما كان يرغب في ذلك عمر بن سعد.

وهكذا فأن المجابهة لم تكن أساساً ما بين قلة وكثرة، وإنما كانت بين النوعيّة والكميّة.. بين الرجال الذين كانوا يحاربون من أجل الآخرة، وبين غثاء من البشر كغثاء السيل، يحاربون من أجل المصلحة..

كان منطق أصحاب الحسين ما قاله حنظلة بن أسعد الشبامي: «أفلا نروح إلى الجنة ونلتحق بإخواننا».

بينما كان منطق جند يزيد ما عبّر عنه خولي، حامل رأس الحسين إلى ابن زياد:.

أملأ ركابي فضةً أو ذهباً ... إنّي قتلتُ السّيدَ المُحجّبا

قتلتُ خَيرَ الناس أُمّا وأباَ ... وخيرُهُم إذ يُنسبونَ نَسَبا

كانت المعركة من قِبل أصحاب الحسين هي معركة دين يخوضونها لكسب رضا الله، في مواجهة النفاق والظلم والعدوان والردّة إلى الجاهلية، أما من قِبَل أصحاب يزيد فإنها كانت معركة

دنيا، يخوضونها طاعة منهم لأميرهم، وانتقاماً من أهل البيت، وما فعل جدّهم بأشياخهم ببدر وحنين.

لقد كان أصحاب الحسين يقاتلون «لمصلحة القضية». أما أصحاب يزيد فكانوا يقاتلون «لقضية المصلحة». وكان الفارق كما قال الله تعالى: ﴿**الذين آمنوا يقاتلون في سبيل الله، والذين كفروا يقاتلون في سبيل الطاغوت. فقاتلوا أولياء الشيطان، إنّ كيد الشيطان كان ضعيفا**﴾

إنّ «كلّ الإيمان»، كما ذكرنا، كان يواجه «كلّ الكفر» في كربلاء، تماماً كما حدث من قبل في معركة الأحزاب.. مع فارق واحد هو أنّ الإيمان هناك هو الذي انتصر على الكفر.. بينما كان المنتصر ـ ظاهرياً ـ في كربلاء هو الكفر ﴿**وتلك الأيام نداولها بين الناس**﴾.

وإنّه لعظيم حقاً في مثل هذه المواجهة أن يكون المرء قائداً في معسكر الحق، فلا يهين ولا يلين، حتى يؤدّي الأمانة كاملة غير منقوصة، ثم يسقط شهيداً على الأرض، بينما تسبقه أعضائه الى جنة الله، ومن يكون كذلك لاينظر إلى الدنيا إلا بمنظار الآخرة، فإذا صلح الزمان فهو لايمانع من التمتع بدنياه لمصلحة آخرته، أما إذا ساء الزمان وتحكّم فيه أهل الباطل، واصبح العمل الصالح محاطا بالصعوبات، فلا يتردد في رفض الدنيا واقتحام الموت، لينتقل إلى عالم الآخرة..

وهذا ما فعله العبّاس وأخوته، فقد كان الموت الزؤام يحوط بهم من كل جانب، وقد آلى جلاوزة بني أمية على حربٍ، أقل ما فيها أن تقطع الأيدي وتطيح الرؤوس ـ كما صرح بذلك عمر بن سعد للحرّ بن يزيد الرياحي ـ. وكان واضحاً أن المعركة سوف تنتهي لا محالة بمقتل الحسين ومن معه، وهذا ما تنبأ به عليه السلام قبل خروجه من مكّة، حيث خطب قائلاً: «خطّ الموت على ولد آدم، مخطّ القلادة على جيد الفتاة، وما أولهني إلى أسلافي اشتياق يعقوب إلى يوسف.. كأنّي بأوصالي تقطّعها عُسلان الفلوات، بين النواويس وكربلاء، فيملأن منّي أكراشاً جوفا وأشربة سغباً، لا محيص عن يوم خُطّ بالقلم.. رضا الله رضانا أهل البيت، نصبر على بلائه ويوفّينا أجور الصّابرين».

فهاهم ذئبان الفلوات يحيطون به وبأصحابه من الجوانب الأربع ليملأوا أكراشهم الجافية من لحومهم. ويرووا أشربتهم السغبة من دمائهم.

وفي هذا الجوّ المشحون برائحة الموت، وفي اليوم التاسع من محرم الحرام، سنة واحد وستين للهجرة، ينزل شمر بن ذي الجوشن ارض كربلاء، حاملاً رسالتين من أمير الكوفة عبيدالله بن زياد، أحدهما إلى عمر بن سعد، يأمره فيها بالزحف على الحسين والقضاء عليه قائلاً: «أنظر فإن نزل الحسين وأصحابه على حكمي، فابعث بهم إليّ سلما.. وإن أبوا فازحف إليهم حتى تقتلهم، وتمثّل بهم.. فإن

قُتل الحسين فأوطأ الخيل صدره وظهره».

وكانت الرسالة مذيلة بتهديد صريح: «فإن أنت مضيت لأمرنا فيه، جزيناك جزاء السامع المطيع، وإن أبيت فاعتزل جندنا وخلّي بين شمر بن ذي الجوشن وبين العسكر، فإنّا قد أمرناه بذلك».

أما الرسالة الثانية فكانت للعبّاس وأخوته، وفيها يعطي لهم ابن زياد الأمان، بشرط الاعتزال عن الحسين.

وهكذا جاء الشمر ـ الذي كان بينه وبين ام البنين نسب بعيد ـ ووقف بازاء مخيم الحسين وصاح قائلاً: «أين بنو أختنا».؟

فلم يكلّمه العبّاس وأخوته ولم يجيبوه.. فكرّر الشمر ندائه.. فقال الحسين لاخوته: «كأنّي اسمع فتى يناديكم؟»

فقال العبّاس واخوته: «انه شمر».

فقال الحسين عليه السلام: «أجيبوه، ولو كان فاسقاً».

فخرج إليه العبّاس وأخوته وهم متجهمون، لا يحبون النظر إليه، أو التحدث معه فهم يعرفون صلافته في الأخلاق، ونفاقه في الضمير، ورعونته في التصرف، فقال له العبّاس:

«ما شأنك وما تريد يابن الضبابي؟»

فقال شمر ـ وكأنه يقدّم إغراءاً ثميناً لبطل العلقمي ـ: «يابني أختي.. لا تقتلوا أنفسكم مع الحسين، وألزموا طاعة أمير المؤمنين يزيد، ولكم عندي الأمان من الأمير عبيدالله بن زياد».

لقد كان الأحمق يظن أن أهل البيت إذا وضعوا بين السلّة والذلّة فإنهم سيختارون الذلّة، فهو هدّد العبّاس وأخوته بالموت إذ قال: «لا تقتلوا أنفسكم مع الحسين»، وقدّم لهم إغراء الأمان، واشترط لذلك: الدخول في طاعة يزيد!.

ولعلّ مثل هذا العرض كان يغري ضعاف النفوس، ولكنّ العبّاس الذي آمن برسول الله، والنور الذي أنزل معه، ذي المعدن الأصيل.. كان منزعجاً جداً، ليس من العرض نفسه فحسب، بل لأنّه لا يزال لأولئك العتاة الأمل في أن يقبل منهم الدخول في طاعة يزيد، عبر التهديد له بالموت.

إنّ العبّاس هو ابن علي الذي كان يقول: «والله.. لابن أبي طالب آنس بالموت من الطفل إلى ثدي أمه». وهو عمّ علي الأكبر الذي كان يقول: «أو لسنا على الحق؟ إذاً لانبالي، أوقعنا على الموت أم وقع الموت علينا».

ولم يكن الموت بأي شكل من الأشكال يخيف أمثال العبّاس واخوته، لكنّ الرجال يقيسون الناس بموازينهم هم، فصاحب الإيمان يرى الناس من خلال صفاته الشخصية، ويزن أعمالهم على الطراز الذي يودّ منهم أن يَزِنوا أعمالهم على منواله، وامّا المنافق فإنه يزن الآخرين من خلال نفسه المريضة ويظن أنهم مثله، مستعدون لبيع آخرتهم بدنياً دنيّة، لم يبق منها إلا صبابة كصبابة الإناء،

وخسيس عيش كالمرعى الوبيل ـ حسب تعبير الإمام الحسين عليه السلام ـ.

من هنا فإن العبّاس صاح في شمر قائلاً: «لعنك الله ولعن أمانك.. أتؤمننا وابن رسول الله لا أمان له؟ وتأمرنا أن ندخل في طاعة اللعناء وأولاد اللعناء؟!»

ثم أدار بوجهه عنه وقصد راجعاً إلى الحسين، وهو يتمتم قائلاً: ﴿إنّا لله وإنّا إليه راجعون﴾.

لقد كانت القضية محسومة عند العبّاس وأخوته، وهو لم يكن ينظر إلى الصراع بين البيت النبوي وبين بني أمية، إلا ضمن مقاييس الحق والباطل، بينما أعداؤه كانوا يتعاملون مع القضية ضمن مقاييس الربح والخسارة، وما يرتبط بالدين عندهم فهم ينظرون اليه كما قال عمر بن سعد:

ءأتركُ ملكَ الرّي، والرّيُ مُنيتي
أم أرجعُ مذموماً بقتلِ حسين؟
حسينُ ابن عمي.. والحوادثُ جَمةٌ
ولكنَّ لي في الرّي قُرةُ عينِ
يقولون إنَّ الله خالقُ جنةٍ
ونارٍ وتعذيبٍ وغلٍّ يدينِ
فإن صدقوا فيما يقولون إنني
أتوب إلى الرحمن من سنتينِ

وإن كـــذبوا فـــزنا بـــدنياً عـظيمة
ومـــلكٍ عـــظيم دائـــم الحـــجلينِ

كانت الخلافة في نظر أهل البيت مسألة إقـامة الحـق ودحـض الباطل، أما عند أعدائهم فكانت مسألة سلطان يبتزونه من اهل الحق أو يتوارثونه من آبائهم.. ولذلك كانوا يتلاقفونها فـيما بـينهم عـملاً بوصية أبي سفيان، الذي قال لهم إبّان خلافة عثمان ـ: «تـلاقفوها يابني أمية كتلاقف الصبيان الكرة، فوالذي يحلف به أبو سـفيان لا جنة ولا نار».

من هنا فإن الأمان الذي حمله شمر إلى العبّاس وأخوته، كـان أماناً ملعوناً عند الله وعند أهل البيت، وكان لابد من رفضه رفـضاً قاطعاً، وصبّ اللعنة على صـاحبه، حـتى وإن ادى ذلك الى قـطع الأيدي وفلق الهامات.

كانت شاكلة شمر من شاكلة قابيل، بينما كانت شاكلة العبّاس من شاكلة هابيل، وكلٌّ كان ﴿**يعمل على شاكلته**﴾.

هذا ولم يكن ذلك الأمان الذي رفضه العبّاس واخوته هو الأمان الوحيد الذي عرض عليهم، فقد سبق ذلك أمانٌ آخر استحصله أحد اخوالهم من عبيدالله بن زياد.

فقد ذكر المؤرخون إنّ عبدالله بن أبي المحل، وهو من اخوال أم العبّاس، تحدّث مع عبيدالله في الكوفة وقال له: «أصلح الله الأمير إنّ

بني أختنا مع الحسين، فإن رأيت أن تكتب لهم أماناً فعلت».

فقال عبيدالله ـ وقد استبشر بذلك، لعله يفصل العبّاس عن أخيه ـ «نعم، ونعمة عين».

ثم أمر كاتبه فكتب لهم الأمان، وبعثه عبدالله بن أبي المحل مع مولى له يقال له «كزمان» إلى العبّاس وأخوته، وجاء الرجل بالأمان إليهم قائلاً: «هذا أمانٌ بعث به خالكم».

فرفض العبّاس استلامه وقال لكزمان:

ـ «أبلغ خالنا السلام، وقل له: لا حاجة لنا في أمانكم.. أمان الله خير من أمان ابن سميّة».

كان منطق العبّاس تماماً مثل منطق الذين آمنوا بموسى الذين قالوا لفرعون **﴿فاقض ما أنت قاض. إنما تقضي هذه الحياة الدنيا﴾**.

وهل يبيع عاقلٌ أمان الله بأمان الطغاة؟! إنّ ذلك ليس من شيمة العبّاس واخوته.

إلإيمان، والطاعة، والشجاعة، والإخلاص، والإيثار، والوفاء، والمواساة، التي اتصف بها العبّاس جعلته مهيوباً لدى الجميع، وكان الاعداء يحسبون لقوته حساباً خاصاً، ولذلك كانوا يريدون ابعاده عن الحسين حتى يسهل عليهم القضاء على ابن بنت رسول الله.

غير أنّ العبّاس كان من قومٍ اختاروا الإيمان على الأمان، والجنة على الجور، ومرارة الحق على حلاوة الحياة، ومصلحة الأمة على

مصلحة ابناء الطلقاء.

وفي الحقيقة فإنّ العبّاس لم يكن مهيوباً في عصره فحسب، وانما بقي مهيوباً في عصورنا هذه ايضاً.. وقد حدث إبان الاحتلال التركي للعراق، أنّ الجنود الاتراك انهزموا امام إنتفاضة العراقيين في كربلاء، وهم يصرخون: «لقد جاءنا العبّاس».

كما أنّ الذين يرتكبون الجرائم يهابون استخدام اسمه كذباً وزوراً حتى اليوم.

إنّ مهابة العبّاس انما جاءت لأنه كان يختار مواقفه حسب مبادئه، غير مبال بأي خطر يمكن أن يترتب على ذلك، ولهذا فهو لم يكن يزن أهل الكوفة بأكثر مما ارتضوا هم لأنفسهم: مجرد ذئابٍ اجتمعوا على جيفة الدنيا..

إنّ العبّاس كان هزبراً هصوراً، وهل يخاف الهزبر الهصور من الذئاب، مهما زادوا و كثروا؟

ولقد وصف أحد زعماء جند يزيد شجاعة العبّاس وأخوته، وبقية بني هاشم والأصحاب وطريقتهم في المجابهة، وصفاً دقيقاً عندما قال: «ثارت علينا عصابةٌ أيديها على مقابض سيوفها، كالأسود الضارية، تحطّم الفرسان يميناً وشمالاً، وتُلقي بنفسها على الموت، لا تقبل الأمان، ولا ترغب في مال، ولا يحول حائلٌ بينها وبين حياض المنيّة أو النصر، فلو كففنا عنها رويداً، لأتت على نفوس العسكر

بحذافيرها».

انها ـ اذن ـ عصابةٌ مؤمنة باعتراف العدوّ، وهي من الشجاعة بحيث تلقي بنفسها على الموت ولا تخاف منه، ولا ترغب في مال، ولذلك فإنها لا تقبل الأمان، وتلعن اصحابه.

غير أن تلك الشجاعة لم تكن نابعة من طبيعة الخشونة فيهم، مثلما كانت عند أعدائهم، بل كانت نابعة من الحكمة التي تضع السيف في موضع السيف، والعطف في موضع العطف، فقد كانوا متخلقين بأخلاق الله، الذي هو «أرحم الراحمين» في موضع العفو والرحمة، و «أشدّ المعاقبين» في موضع النكال والنقمة.

ولأن العبّاس كان يحمل في صدره قلباً عطوفاً، يذوب رقةً وحناناً من اجل المستضعفين من الرجال والنساء والولدان، فقد أوكل اليه أمر النساء، وهن قوارير حسب وصف النبي صلى الله عليه وآله، ويحتاج التعامل معهن إلى كثير من الرقة والعطف وحسن التدبير، خاصة عند المصائب والكوارث، حيث تجيش العواطف، وتعصف الآلام بالنفوس.

فلقد استنجد الحسين عليه السلام بالعبّاس مرات عديدة، لتهدئة عواطف حُرم النبي صلى الله عليه وآله، وكان من ذلك، يوم هدد الاعداء الحسين عليه السلام بالموت عطشاً في صبيحة يوم عاشوراء قائلين:

«قد علمنا من أنت، ولكنّنا غير تاركيك حتى تذوق الموت

عطشاناً»..

فبكت أخته وبناته وارتفعت أصواتهن بالبكاء، فوجّه الحسين أخاه العبّاس، وابنه علي الأكبر اليهن وقال لهما: «أسكتاهن، فلعمري ليكثرنّ بكائهن».

وقام العبّاس وعلي الأكبر بالمهمة الملقاة على عاتقهم بافضل ما يمكن، واستطاعا أن يعيدا الطمأنينة الى قلوب الهاشميات، ليس في تلك الساعات فحسب، بل في مابعد ذلك ايضاً، حيث تحملّن تلك المصائب، بقلوب خاشعة لله، قوية في مواجهة الباطل، صريحة في ادانته، ولم يصب احدٌ منهن بالانهيار فيما بعد.

ثم إنّ التقابل ما بين المعسكرين كان تاماً وكاملاً، كتقابل الليل والنهار، والنور والظلمة، والخير والشر.

ففي معسكر الحسين كان «سيد شباب اهل الجنة» هو رأس الهرم، ثم يأتي بعده «العبّاس بن علي»، ثم «حبيب بن مظاهر»، ثم زهير بن القين».. فكان الحسين هو القائد الاعلى، باعتباره إمام المسلمين، ووارث النبيين، وحجة رب العالمين.

وأما يزيد فكان يمثل رأس السلطة العليا الدنيوية، التي حصل عليها بالجبر والتزوير، وشراء الضمائر، واستخدام المال والسيف، تلك الوسائل التي استخدمها ابوه معاوية لتحويل الخلافة، التي كانت اساساً قائمة على ارضية مهزوزة غير شرعية، تحويلها الى وراثةٍ

كسروية وقيصرية يتوارثها الابناء من الآباء كما يتوارثون الدينار والذهب والدرهم والثياب والمتاع.

فيزيد لم يكن إلّا خليفة السيف، والذهب، والخديعة، والدجل والكذب والمؤامرة.

ويكشف عن هذه الحقيقة ذلك المجلس الذي عقده معاوية في ايام خلافته، حيث قام الناطق باسم الدولة، وقال: «امير المؤمنين هذا» واشار الى معاوية بن ابي سفيان.

واضاف: «فإن مات هذا» وأشار الى ولده يزيد.

ثم قال: «ومن ابى فهذا» وأشار الى السيّاف الذي كان يقف بين يدي معاوية وبيده سيف طويل، بطول الظلم الاموي.

وهكذا فإنّ التسلسل القيادي في مواجهة الحسين كان خالصاً في ظلمته، حيث كان على رأس الهرم الطاغوت «يزيد بن معاوية» ثم الطاغية «عبيدالله بن زياد»، ثم البائع آخرته بدنيا غيره «عمر بن سعد»، ثم الجلف الجافي «شمر بن ذي الجوشن»، ثم المنسلخ عن آيات ربه «شبث بن ربعي».

وبهذا فإنّ مرتبة العبّاس في معسكر الايمان، كانت تأتى بعد مرتبة الحسين مباشرة، وكانت تقابل مرتبة «شمر بن ذي الجوشن» في معسكر النفاق، ويدل على هذه المرتبة العظيمة للعبّاس، حمله للراية في يوم عاشوراء، فمسألة حمل الراية، ليست مسألة عادية،

فللعلم منذ أقدم العصور وحتى اليوم قيمة رمزية عليا، فالعلم يمثل الدولة، وفي القديم كان يمثل الأمة، ولذلك فإنّ للعلم احترامه الخاص، حيث يؤدي رئيس الدولة التحية له كلما مر أمامه.. ولأنّ للعلم تلك القيمة فإنّ رفضه يعني رفض سلطة تلك الدولة.

ومن هنا فإنّ كل قوم يرفضون سلطة قوم آخرين، فإنّهم يعمدون الى إحراق علمهم أو تمزيقه.

كان ذلك في القديم ولا يزال حتى اليوم.

كما ان تنكيس العلم يعني السقوط، او حالة الحزن العام.

كان ذلك في القديم ولا يزال حتى اليوم.

ورفع علم الدولة على موقع دولة اخرى، يعني احتلالها.

كان ذلك في القديم ولا يزال حتى اليوم.

وبمقدار ما للراية من القيمة، فإنّ لحاملها مكانة عظمى، اذ لا تعطى الراية إلّا للشجعان الاوفياء، وقد قال الامام علي في ايام صفين: «لاتميلوا برياتكم، ولاتزيلوا، ولاتجعلوها إلّا مع شجعانكم، فإنّ المانع للذمار، والصابر عند نزول الحقائق اهل الحفاظ.. اعلموا ان اهل الحفاظ هم الذين يحتفون برياتهم، ويكتنفونها ويصيرون حفافها، ووراءها، ولايضيعونها ولا يتأخرون عنها فيسلمونها ولايتقدمون عنها فيفردونها».

ولقد عقد رسول الله ﷺ اول راياته بيد حمزة بن عبدالمطلب،

في شهر رمضان من السنة الاولى للهجرة.

اما اول راية في التاريخ فهي التي حملها ابراهيم الخليل، عندما سار لمحاربة الروم. يقول الامام علي عليه السلام: «اول مجاهد في سبيل الله ابراهيم عليه السلام (فقد) اغارت الروم على ناحية فيها لوط فأسروه، فبلغ ذلك ابراهيم، فنفر فاستنقذه من ايديهم، وهو اول من حمل الرايات».

إنّ الراية على كل حال، عقد نظام العسكر، وآية زحفهم، ومادامت هي مرفوعة فإنّها تعني اشارة الظفر وعلامة الفوز، أما اذا نكّست او سقطت فإنّها تعني الهزيمة، ولذلك فإنّ الراية إنّما تعطى للأكفاء الغيارى ممّن لايبخسه الخور، ولايفشله الضعف، ولايخذله الطمع.. ولذلك كان الامام علي عليه السلام هو حامل راية رسول الله في جميع مغازيه، ما عدا معركة تبوك حيث لم يكن مشاركاً فيها. وفي بداية معركة أحد حيث ان الراية أعطيت لمصعب بن عمير وبعد أن سقط مصعب شهيداً، حملها الامام. ولقد قال رسول الله في فتح خيبر: «لأعطّين الراية غداً رجلاً يحب الله ورسوله، ويحبّه الله ورسوله، كرار غير فرّار».

وكانت تلك الراية هي ذاتها التي حملها الامام علي معه في معركة الجمل، وهي التي قال فيها قيس بن سعد بن عبادة:

هذا اللواء الذي كنّا نحفّ بهِ مع النبي وجبريلٌ لنا مدداً

ماضرّ من كانت الأنصار عيبتهُ أن لايكون لهُ من غيرها أحداً
قومٌ إذا حاربوا طالت أكفهمُ بالمشرفية حتى يفتحوا البلدا

وكانت تلك الراية هي ذاتها التي حملها العبّاس في يوم عاشوراء.. فهي الراية التي عقدها رسول الله لحمزة، وحملها علي مع النبي في بدر، وأحد، والخندق، ثم حملها الامام علي في معاركه، وهاهي خفاقة في يد ابي الفضل عليه السلام.

إنّ اهل البيت لم يغيّروا شيئاً في دين الله، وبقيت راية رسول الله معهم.. ليس من حيث وجودها المادي فحسب، بل من حيث محتواها: كراية الحق في مواجهة رايات الباطل، وراية الايمان في مواجهة رايات الضلالة، وراية العدل في مواجهة رايات الظلم، وراية النور في مواجهة رايات الظلمات، وتلك الراية ورثها رسول الله صلى الله عليه وآله من آدم ونوح وابراهيم وموسى وعيسى، وهي التي حملها الامام علي في معركة الجمل في مواجهة الناكثين، وفي معركة صفين في مواجهة القاسطين، وفي معركة النهروان في مواجهة المارقين، ثم هاهو الحسين يرفعها في مواجهة معسكر يضم خليطاً من الناكثين، والقاسطين، والمارقين، وامثالهم.

من جهته كانت راية عبيدالله بن زياد في مواجهة الحسين هي ذاتها راية معاوية في مواجهة الامام علي، وهي ذاتها راية أبي سفيان في مواجهة رسول الله، وهي الراية التي ورثها أبو سفيان من قابيل

ونمرود، وفرعون، وبني اسرائيل.

لقد كان العبّاس في الموقع الصحيح تماماً ولهذا اعطى الحسين رايته في يوم عاشوراء لأخيه ابي الفضل، فعندما أصبح الصباح من ذلك اليوم، صلى الامام بأصحابه صلاة الغداة، ثم رفع يديه الى السماء وقال:

«اللّهم أنت ثقتي في كل كرب، وأنت رجائي في كل شدة، وأنت لي في كل أمرٍ نزل بي ثقة وعدّة، كم من كرب يضعف فيه الفؤاد، وتقل فيه الحيلة، ويخذل فيه الصديق، ويشمت فيه العدو، أنزلته بك، وشكوته إليك، رغبة منّي إليك عمّن سواك، ففرّجته عنّي، وكشفته؟.. فأنت ولي كل نعمة، وصاحب كل حسنة، ومنتهى كل رغبة».

ثم نظر الى اصحابه وقال لهم: «إنّ الله قد اذن في قتلكم، وقتلي في هذا اليوم، فاتقوا الله واصبروا».

ثم صفّهم للحرب، وكانوا اثنين وثلاثين فارساً واربعين راجلاً، فجعل «زهير بن القين» في ميمنة أصحابه، و«حبيب بن مظاهر» في الميسرة، وثبت هو في القلب وأعطى الراية أخاه العبّاس، وجعلوا الخيام في ظهورهم.

بينما أن عمر بن سعد أبقى الراية معه، إذ لم يجد أحداً من قوّاد جنده على مستوى حملها دونه. ذلك ان عمر بن سعد صف أصحابه، وكانوا ثلاثين ألفاً، فجعل على ميمنة عسكره «عمرو بن الحجاج

الزبيدى»، وعلى الميسرة «شمر بن ذي الجوشن العامري»، وعلى الخيل «عزرة بن قيس الأحمسي»، وعلى الرجالة «شبث بن ربعي»، وأعطى الراية مولاه دريد.

وكان اعطاء الراية لعبدة يعني في العرف العسكري، أنّه أبقاها لنفسه.

وهكذا نجد أن العبّاس يكون في التسلسل القيادي ـ كما قلنا ـ في مواجهة شمر بن ذي الجوشن في الجبهة الاخرى.

فالعبّاس كان يرتفع في المناقبيات، بمقدار ما كان شمر يسقط في حضيض الموبقات، وكان العبّاس ممثلاً للحسين ومماثلاً له بحيث يمكننا القول انّه لو لم يكن الحسين موجوداً يوم عاشوراء لكان العبّاس هو قائد تلك الثورة بلاتردّد ومن هنا فإنّ الثقة بين الحسين وأخيه، كانت ثقة متبادلة، والاعتماد بينهما كان متبادلاً ايضاً، تماماً كما كان الأمر بين النبى صلى الله عليه وآله وعلي فالامام علي، كان يتبع رسول الله «إتباع الفصيل إثر أمه» كما عبّر عن ذلك، وكان ينام في فراشه، ويفديه بنفسه، ومن جهته فإنّ رسول الله سلّمه قياد أصحابه ورمى به في لهوات الحرب، وسلّمه راية حروبه ومغازيه، وكذلك كان العباس مع الحسين، فقد اتبعه إتباع المؤمن لإمامه، وعندما واجه الحسين الموقف الصعب في كربلاء كان العبّاس هو «العلامة من اصحابه».

كان حسب تعبير أحد الشعراء «كبش الكتيبة» و«الغر المحجل»

والأمل في تلك المعركة.

ولقد عبّر العبّاس عن موقفه العظيم هذا في القول والفعل معاً، ففي ليلة العاشر من المحرم، أي قبل مقتله بأقل من اربعٍ وعشرين ساعة، جمع الحسين أصحابه وخطب فيهم قائلاً: «أثني على الله أحسن الثناء، وأحمده على السرّاء والضرّاء، اللّهم إنّي احمدك أن أكرمتنا بالنبوّة، وعلمتنا القرآن وفقهتنا في الدين، وجعلت لنا أسماعاً وأبصاراً وأفئدة، ولم تجعلنا من المشركين».

«أمّا بعد.. فإنّي لا أعلم أصحاباً أوفى، ولا خيراً من أصحابي، ولا أهل بيتٍ أبرّ، ولا أوصل، ولا افضل، من اهل بيتي، فجزاكم الله عنّي خيراً، فلقد بررتم وعاونتم».

ثم قال عليه السلام: «ألا وإنّي لا أرى يوماً لنا من هؤلاء الأعداء إلّا غداً.. ألا وإنّي قد اذنت لكم فانطلقوا جميعاً، فأنتم في حلٍ من بيعتي ليس عليكم منّي ذمام.. وهذا الليل قد غشيكم فاتخذوه جملاً، وليأخذ كل رجل منكم بيد رجلٍ من اهل بيتي، وتفرقوا في سوادكم ومدائنكم، فإنّ القوم إنّما يطلبونني ولو أصابوني لذهلوا عن طلب غيري».

كان الحسين في قمة الصفاء مع اصحابه منذ بداية نهضته وحتى نهايتها، فهو لا يريد ان يكون معه احد إلّا بإرادته الحرّة، ولا يريد أن يصحبه الناس، خجلاً منه او جهلاً بمصيرهم معه، فهو يعلن بأنّه

مقتول لامحالة، وأنّه إنّما يقدم على ما يقدم عليه وهو عارف بهذا المصير، ولذلك فإنّه يبحث عن أنصارٍ على هذا المستوى من المعرفة والتصميم والايمان.

ولقد وجد ـ عليه السلام ـ من كان يبحث عنهم بتلك المواصفات، فكان اصحابه كما قال أفضل اصحابٍ في التاريخ، وكان أهل بيته أفضل أهل بيتٍ ايضاً.

فبمجرد أن انهى الحسين خطابه ذاك، قام إليه أخوه العبّاس وقال: لمَ نفعلُ ذلك (أي لماذا نتخلى عنك ونتفرق في السواد والمدائن) لنبقى بعدك؟!»

«لا أرانا الله ذلك ابداً».

وأضاف: «لا والله يابن رسول الله، لانفارقك ابداً. ولكن نقيك بأنفسنا حتى نقتل بين يديك، ونرد موردك».

وختم العبّاس كلامه بالقول: «قبّح الله العيش بعدك».

كانت الرؤية متطابقة بين الأخوين، فكان الحسين يقول: «إنّي لا أرى الموت إلّا سعادة، والحياة مع الظالمين إلّا برماً». وكان العبّاس يصرح بالقول: «قبّح الله العيش بعدك».. فكلاهما لايرى اي معنى للعيش اذا كان شرطه الصمت على الظلم والقبول بالطغيان.. وكما كان الحسين يطلب الشهادة فإنّ العبّاس عليه السلام ايضاً كان يطلبها، ليس معه وإنّما قبله فهو يقول: «نقيك بأنفسنا حتى نقتل بين يديك».

وكان العبّاس في ذلك على خطى أبيه مع رسول الله، فلقد كان الامام علي يزهد في الملبس والمأكل والمشرب فيلبس الخشن من اللباس، ويأكل الجشب من الطعام، ولما قيل له في ذلك قال: «ان رسول الله كان يلبس اخشن من هذا.. ويأكل ايبس من هذا.. واخاف إن لم افعل مثله، ان لا ألحقه».

وهكذا كان العبّاس ايضاً، فهو يخاف إن لم يقف ذات الموقف الذي يقفه الحسين، وان لم يقتل دونه، أن لايلحق به في جنة الخلد.

انه، باختصار كان يريد أن يرد مورد الحسين ليرافقه عند مليك مقتدر.

إنّ الذين قتلوا في التاريخ كثيرون، ولكنّ الذين كانوا يمشون الى الموت بخطى ثابتةٍ، راضين به تمام الرضى لأنّهم على الحق، وعدوهم على باطل، وكانوا يعرفون تماماً المصير الذي ينتظرهم خاصة على ايدي اولئك الطغاة، هم قلّة في التاريخ، ومثل هذا الموقف لايمكن ان يصدر إلّا من الذين آمنوا بالله، وكفروا بالطاغوت وأعانهم الله تعالى على انفسهم، ووفّقهم لمرضاته، فقبلوا خيار الموت حتى لايخسروا شيئاً، ولو بسيطاً من دينهم.

يقول الامام الحسين: «الّا وإنّ الدعي قد ركز بين اثنتين: بين السلة والذلة، وهيهات منّا الذلة، يأبى الله ذلك لنا ورسوله، وحجور طابت وطهرت، وأنوف حمية، ونفوس زكية، من أن نؤثر طاعة اللئام

على مصارع الكرام».

وفي المقارنة بين مواقف العبّاس واخوته، مع مواقف بعض اصحاب رسول الله، نجد فارقاً كبيراً يميل لجهة العبّاس عن اولئك.. مثلاً عندما اشتدت الظروف على النبي في معركة احد، وكذلك في معركة حنين، هرب الكثير من الصحابة، باستثناء علي عليه السلام وقلة من الاخيار، عن رسول الله صلى الله عليه وآله وتركوه عرضةً لسيوف الاعداء، لينجوا بأنفسهم، حتى اضطر رسول الله، في بعض المواقف الى ان يصرخ فيهم قائلاً:

«الى اين تفرون؟».

أيها الناس هلّموا إلي. أنا رسول الله. أنا محمد بن عبدالله.. أنا بن عبدالمطلب..أنا النبي لاكذب».

ومع ذلك ذهب البعض بها عريضة، وشرد حتى وصل الى حدود فلسطين، ولم يعد إلّا بعد ايام ثلاث من انتهاء المعارك . فنزلت فيهم الآية الشريفة: **﴿وما محمد إلّا رسول قد خلت من قبله الرسل، أفإن مات او قتل انقلبتم على اعقابكم ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئاً وسيجزي الله الشاكرين﴾**

ولقد كان اولاد الذين حاربوا رسول الله في تلك المعارك واولاد الذين فرّوا عنه، يقفون في كربلاء لمواجهة اولاد علي الذي وقف مع رسول الله، وصدّ عنه آباءهم.

لقد كان اعداء الحسين عليه السلام قد انقلبوا منذ زمن طويل على اعقابهم، وهاهم يريدون القضاء على اهل البيت والسائرين على منهجهم، وكان الامام الحسين صريحاً حينما قال: «فإنّي لا أعلم اصحاباً اوفى، ولاخيراً من أصحابي، ولا اهل بيت أبرّ ولا اوصل، ولا افضل من اهل بيتي، فجزاكم الله عنّي خيراً، فلقد بررتم وعاونتم».

ثم بمقدار ما كان الاعداء يتنافسون في الحصول على مغانم الدنيا، فإنّ اصحاب الحسين كانوا يتنافسون في التضحية بدنياهم لكسب الآخرة.

وكان للعبّاس قصب السبق في تلك المنافسة، ففي ليلة العاشر من المحرم انشغل الاصحاب بالدعاء والصلاة، وكان العبّاس وحداً منهم فهو ـ كما يذكر المؤرخون ـ كان من زهّاد العلماء، ومن علماء الزهّاد، حيث كانت سيماء السجود لله ـ تعالى ـ بادية في جبهته، من كثرة الصلاة والسجود.

وعندما ضعف الاصحاب في تلك الليلة عن العبادة، واستسلموا للكرى في اواخر الليل، بقي العبّاس يقظاً حتى الصباح، وتحمل مهمة حماية المعسكر، حتى يرفع الوحشة عن بنات رسول الله، لكي يجدن نصيبهن من الراحة، وهنّ على وشك تحمل مصيبة كبرى، قلّ مثيلها في التاريخ.

وهكذا فإنّ العبّاس شارك الآخرين في الصلاة والدعاء، ولم يشاركه اولئك في الحماية في تلك الليلة.

فبقي يحرس الخيام حتى الصباح، وفي وقت متأخر من تلك الليلة، وبينما كان يدور حول المعسكر، اذ شاهد شبحاً يتحرك بين اطناب الخيام، فصرخ قائلاً:

ـ «من هذا؟»

فسمع اخته زينب عليها السلام تقول:

ـ «يا ابا الفضل، انا اختك زينب».

فقال العبّاس مندهشاً:

ـ «اختاه.. ما الذي ازعجك في مثل هذا الوقت؟! وماذا اخرجك من الخيمة؟»

فقالت زينب ـ وهي تخفض صوتها ـ: «اخي.. خرجت لأحدثك بحديث..»

فقال العبّاس متلهفاً ـ: «حدثيني يا اختاه، فقد حلى وقت الحديث..»

ثم انحنى لينزل من ظهر جواده، احتراماً لأخته، إلّا انّها منعته من ذلك قائلة:

ـ اخي.. احدّثك وانت على متن جوادك، فذلك اقرّ لعيني».

فوضع العبّاس عليه السلام حنكه في كفه، واتكأ بيده على ركبته، مصغياً

الى حديثها الذي بدأته بقولها:

«اعلم، انه لما ماتت امّنا فاطمة، حزن عليها ابونا، امير المؤمنين، كثيراً..

ثم بعد مدة من الزمن، أرسل الى اخيه عقيل بن ابي طالب، وقال له: اشر عليَّ بامرأة اخطبها، من ذوي البيوت، والشرف، والشجاعة».

فقال عقيل: «وما تصنع بها؟».

فقال ابي: «لأرزق منها ولداً، ادّخره لغربة ولدي الحسين».

فقال عقيل: «يا امير المؤمنين، هذه فاطمة الكلابية، قد انجبتها الفحولة من العرب..»

وهكذا خطب ابونا، امّك فاطمة..».

ثم انّ زينب مدّت يدها اليمنى، واخذت بعنان فرس العبّاس، بينما اشارت بيدها اليسرى الى خيام النساء الطاهرات، وقالت:

«.. البنات بناتك، والاخوات اخواتك، والحلائل حلائلك»

ثم سكتت لحظة، اضافت بعدها:

«اخي.. فلاتقصر عن نصرتنا».

لم تكن زينب عليها السلام تشك في وفاء العبّاس عليه السلام وتصميمه على الموت، دون الحسين، في مواجهة قوى الردّة الجاهلية، وهي التي سمعته يردّ الامان الذي جاء به اكثر من واحد، من قبل عبيدالله بن

زياد قائلاً: «لعنك الله ولعن امانك».

ولا كانت زينب تشك فيما ستؤول إليه الامور في غد وما يجري على ابي الفضل فيه، وهي التي سمعت تفاصيل ما سيجري في كربلاء من «ام سلمة» زوجة رسول الله، عن لسان الوحي.

ولكنها كانت تريد ان تكشف عن الجذور البعيدة للاحداث التي ادّت الى ان تكون في تلك اللحظات واقفة امامه، وهو يؤدي دور الحارس لبوابة الرسالة المحمدية..

بالاضافة الى انّها كانت تقدم إليه رسالة التشجيع، ليسهل عليه تحمّل كل ما يترتب على مواقفه..

فزينب لابدّ ان تؤدي دورها التشجيعي، قبل مقتل الحسين واصحابه، لتتحمل كل المسؤولية بعد ذلك..

وقد فهم العبّاس مغزى رسالتها..

ولذلك فإنّه لم يكد يسمع الجملة الاخيرة من كلامها، إلّا وانتفض فيه العرق الهاشمي، وشعر بقشعريرة النخوة تسري في اوصاله.. فتمطّى في الركاب حتى مزّقه، ثم اخرج سيفه من الغمد، واخذ يهزه قائلاً:

«أتشجعيني يا اختاه، وانا ابن من تعرفين؟!»

ثم اضاف بعد سكوت قصير:

«لأنعمنّك عيناً يا بنت امير المؤمنين».

زينب، ذكّرته بأمّه.. والعبّاس ذكّرها بأبيها وابيه.

هي ذكّرته بشجاعة امّه، فاطمة الكلابية، التي انجبتها الفحولة من العرب..

وهو، ذكّرها ببصيرة ابيها وابيه، وصبره، ورباطة جأشه.. الذي حمل كل اثقال الرسالة، وواجه كل المصاعب من غير ان يتوانى، او يتراجع او يشك في يقينه حتى قال: «والله لو لقيتهم فرداً، وهم ملأ الارض، ما باليت ولا استوحشت. وانّي من ضلالتهم التي هم فيها، والهدى الذي انا عليه، لعلى ثقةٍ، وبينةٍ وبصيرة».

ومن تلك الام وهذا الاب، ورث العبّاس الشجاعة والبصيرة، والصبر واليقين.. وبذلك «سينعمها عيناً»..

وقبل ان يمرّ اربع وعشرون ساعة على تلك المحادثة، كان العبّاس قد وفى بما وعد اخته، واقرّ لها العين، بمواقف شهدت لها الملائكة والناس، وسار بها الركبان، وقلّ نظيرها في التاريخ.

العبّاس..

قمة في التضحية والايثار والوفاء

ان العبّاس كان الاول في التنافس على التضحية والايثار والوفاء.

وفي الحقيقة، فإنّ اصحاب الحسين كانوا يقومون بعملٍ قلّ أن نجد مثيله في التاريخ، انّهم كانوا يعرفون انّهم غير قادرين على دفع القتل عن امامهم، ومع ذلك كانوا يتنافسون على ان يُقتلوا دونه.

يقول ابن الاثير، في كتابه الكامل: «لمّا رأى اصحاب الحسين انّهم لايقدرون ان يمنعوا عن الحسين القتل، فإنّهم تنافسوا على ان يقتلوا بين يديه».

إنّ المرء ربّما يكون مستعداً للمغامرة بحياته لكي ينقذ غيره، اذا كان هنالك امل في انقاذه. فأنت مثلاً ربّما لاتمانع من أن ترمي بنفسك في البحر لانقاذ غريق، اذا كان عندك امل في انقاذه حياً، أمّا ان لم يكن لك امل في ذلك فلن تغامر بحياتك من اجله.

لكنّ اصحاب الحسين كانوا يتنافسون على التضحية، وهم يعرفون انّهم لن يستطيعوا على اية حال ان يدفعوا القتل عن الامام، انّهم كانوا يموتون لأنّهم لايريدون العيش في دنيا لايستطيع مثل الحسين أن يعيش فيها. ويرفضون البقاء في حياة يحكمها الظلم والنفاق والعدوان، ويتحكم فيها الظالمون والمنافقون.

ان تضحيتهم كانت تضحية من طراز رفيع، رافقتها شجاعة من نوع نادر، نبعت من ايمان غير عادي.

لقد اعطى اولئك معنى للوجود الانساني، وكشفوا عن ان الحياة للإنسان تختلف عن حياة الحشرات، فالحياة ليست مقدسة لذاتها، ولكنّها تكسب قدسيتها من الاهداف المبتغاة من ورائها..

فما قيمة حياة يتحول فيها المرء الى علق يمتص دماء الابرياء؟

وما قيمة عيشٍ لايمكن تحقيقه، إلّا بموت الآخرين؟

وما قيمة حرية، تقوم على مصادرة حريات الناس؟

إن للحياة قيمتها اذا كانت في ظل العدل، ولها قداستها اذا كانت من اجل الآخرة.

ان الحسين واصحابه كانوا يريدون الحياة، ولكن ليزدادوا فيها تقرباً الى الله، وعملاً بطاعته، وهذا ماصرح به الحسين يوم التاسع من المحرم عندما طلب من العدو استمهاله ليلة واحدة، حتى يقوم بمزيد من عبادة الله والدعاء له، والتضرع الى جنابه.

ذلك ان عمر ابن سعد نهض عشية الخميس، لتسع خلون من محرم، أي قبل يوم واحد من مقتل الحسين واصحابه، ونادى في عسكره للزحف نحو معسكر اهل البيت عليهم السلام وكان ذلك بعد ان تلقى امراً من الطاغية عبيدالله بن زياد بأن لا يمهلهم.. وكان العبّاس يقوم ـ كعادته طوال الرحلة ـ بحراسة معسكر الحسين فلما سمع اصوات الخيل تقترب، عرف انّها الحرب.

فجاء الى الامام وكان جالساً امام خيمته محتبياً بسيفه فقال له: «اخي قد اتانا القوم، فهذا العدو يقترب منّا».

فنهض الحسين قائلاً: «اركب، بنفسي انت، حتى تلقاهم وتسألهم عمّا جاءهم، وما يريدون؟».

فأتاهم العبّاس، وكان يرافقه زهير بن القين، وحبيب بن مظاهر، فسألهم عن ذلك؟

فقالوا: «قد جاء امر الامير (يقصدون عبيدالله بن زياد) أن نعرض عليكم أن تنزلوا على حكمه، او ننازلكم الحرب».

فرجع العبّاس الى الحسين، واخبره بمقالة القوم.. بينما استغل حبيب بن مظاهر الفرصة ليعظهم وينصحهم فقال فيما قال: «أما والله، لبأس القوم عند الله غداً قوم يقدمون عليه وقد قتلوا ذريّة نبيه وعترته واهل بيته، وعبّاد اهل هذا المصر المتهجدين بالاسحار، الذاكرين الله كثيراً».

فقال له عزرة بن قيس وهو من قادة جيش العدو: «انّك لتزكي نفسك ما استطعت».

من جانبه قال الحسين لأخيه: «ارجع إليهم، فإن استطعت أن تأخرهم الى غد، وتدفعهم عنّا العشية، لعلنا نصلّي لربنا الليلة، وندعوه ونستغفره فهو (أي الله) يعلم أنّي احب الصلاة، وتلاوة الكتاب، وكثرة الدعاء والاستغفار».

كان العبّاس، كما قلنا، رجل المهمات الاصعب، في معسكر كل مهماته كانت صعبة، وكان يملك من مضاء المنطق، بمقدار ما يملك من مضاء السيف. وكانت قوة روحه، وعظمة شخصيته، تعطيه القدرة على ان يفرض تأجيل القتال، بالرغم من انّ العدو كان قد اعدّ واستعدّ وتحرّك بالفعل للقضاء على الحسين واصحابه، وهكذا عاد العبّاس إليهم، وناقشهم الامر، وأقنع قسماً منهم بذلك، بينما بقي قسم آخر مصراً على تنفيذ مهمته القذرة في نفس الوقت.

وكان فيمن اقتنع بضرورة تأجيل القتال، كل من عمرو بن الحجاج وقيس بن الاشعث، فقد قال عمرو لقومه:

«ويلكم والله لو أنّهم من الترك والديلم، وسألونا مثل ذلك لأجبناهم، فكيف وهم آل محمد؟».

أما قيس بن الاشعث فجاء الى عمر بن سعد وقال له:

«أجبهم الى ما سألوك، فلعمري ليستقبلك بالقتال غدوة».

وحينما اختلف رجال العدو فيما بينهم لم يجد عمر بن سعد بدّاً من الرضوخ للتأجيل للأمر وأبلغ العبّاس قائلاً: إنّا أجّلناكم الى غد، فإن استسلمتم سرحنا بكم الى ابن زياد، وإن أبيتم فلسنا تاركيكم».

وهكذا استطاع العبّاس بمضاء منطقه، أن يؤجل القتال يوماً واحداً، وكانت فرصة ذهبية لأولئك الرجال حتى يبيتوا ليلتهم تلك ولهم دوي كدوي النحل، ما بين قائم وقاعد، وراكع وساجد ـ كما يقول المؤرخون ـ

إنّ جوهر الدين طاعة الله، وجوهر الطاعة عبادته، والدنيا دار ممر، والآخرة دار مقر، والمؤمنون لايريدون الدنيا إلّا بمقدار ما يستطيعون العمل فيها لآخرتهم، وهم يجعلون دنياهم تبعاً لدينهم، على عكس اهل النفاق الذين يجعلون دينهم تبعاً لدنياهم.

هكذا كان وعي الحسين واصحابه، فهم كانوا يدورون حول طاعة الله، وكانت تلك محور حياتهم في هذه الارض. ومن الطاعة كانت تنبعث كل مواقفهم الاخرى، فهم إذ يرفضون الظلم فلأنّ الله تعالى حرّم ذلك عليهم بقوله: ﴿ولاتركنوا الى الذين ظلموا فتمسكم النار﴾.

وهم إذ يقاتلون اهل البغي، فلأنّ الله أوجب ذلك بقول:﴿قاتلوا أئمة الكفر إنّه لا إيمان لهم﴾.

وهم إذ يرغبون في الشهادة فلأنّ الله تعالى وعد الاجر الكبير

عليها بقوله: ﴿ولاتحسبنّ الذين قتلوا في سبيل الله أمواتاً بل أحياء عند ربّهم يرزقون، فرحين بما آتاهم الله من فضله ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم الّا خوف عليه ولا هم يحزنون﴾.

وهم إذ يرخصون انفسهم في المجابهة، فلأنّهم سبق وأن باعوها لله في صفقة لاتبور ﴿إنّ الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأنّ لهم الجنة يقاتلون في سبيل الله فيقتلون ويقتلون، وعداً عليه حقاً في التوراة والانجيل والقرآن﴾.

ولذلك فإنّهم عندما يطلبون من العدو أن يستمهلهم سواد ليلة واحدة، فليس لكي يضيفوا ليلة اخرى الى اعمارهم ويقضوها بالنوم والراحة، ويكسبوا وقتاً اضافياً في هذه الدنيا التي وصفها الحسين بقوله: «إنّ الله خلق الدنيا للفناء، فجديدها بالٍ، ونعيمها مضمحل، وسرورها مكفهر، والمنزل تلعة، والدار قلعة». حذّر منها بقوله: «فلاتغرّنّكم الدنيا فإنّها تقطع رجاء من ركن إليها، وتخيّب طمع من طمع فيها».

فهم يعرفون الدنيا على حقيقتها كما يعرفون الآخرة على حقيقتها، وعندما يستمهلون ليلتهم فلكي يكسبوا طاعة اضافية فيها، لأنّها آخر فرصتهم في الحياة.. وما احلى عبادة من يعرف ان وراءهاالجنة؟ وما اجمل صلاةً يعرف صاحبها انّها ستكون من اخريات صلواته في الحياة؟ وما ألذّ سجدةً يعرف ساجدها ان بينه

وبين الحصول على جزائها سواد ليلة؟

ولقد كان لأبي الفضل، كلّ الفضل في تأجيل القتل، ومن ثم تحصيل تلك الفرصة الاضافية للعبادة التي تفرغ لها الحسين واصحابه في تلك الليلة، كما في بقية الليالي.

وفي الحقيقة، فإنّ الحياة والموت في وعي المؤمنين وجهان لعملة واحدة، لأنّ الموت ليس مجرد خاتمة للحياة: بل انّه انتقالة ابدية من الحياة القصيرة الفانية الى الحياة الباقية، ولايختلف الامر في ذلك بالنسبة الى المؤمنين او غيرهم فإذا عمل الانسان عملاً صالحاً في هذه الحياة، وهو مؤمن فستكون حياته الابدية نعيماً مقيماً لايزول، وان لم يفعل فحياته الابدية ستكون شقاءً ابدياً لاينتهي.

والمهم أن يحاول المرء ان يملأ حياته في الدنيا بالعمل الصالح بكل اشكاله وانواعه، ابتداءً من مساعدة عابر في عرض الطريق، وانتهاءً بالاستشهاد في سبيل الله في ساحة الوغى، ومروراً بكل مفردات الايمان بالله والنفع لعباده. مع الاخذ بعين الاعتبار ان بعض الاعمال الصالحة اهم من غيرها، فالجهاد في سبيل الله مثلاً عمل صالح، كما هي اقامة النوافل التي هي من الاعمال الصالحات، ولكن شتّان بين من يموت من اجل ان يقيم العدل، ويخلّص الناس من الشرك والكفر والنفاق والظلم والطغيان، وبين من يترك الجهاد

لينشغل عنه بإقامة النوافل وخلاص نفسه.

إنّنا نجد في حياة العظماء، انّهم كانوا يختارون من الصالحات الاهم، كلما وجدوا الى ذلك سبيلاً. يقول الامام علي عليه السلام: «ألا وإنّ الجهاد باب من ابواب الجنة، فتحه الله لخاصة أوليائه، وهو لباس التقوى، ودرع الله الحصينة.. فمن تركه رغبةً عنه ألبسه الله ثوب الذلّ، وشمله البلاء، وأديل الحق، وسيم الخسف ومنع النصف».

وهنالك لاشك ابواب اخرى في الجنة، ولكن باب الاولياء يختلف عن تلك الابواب، لأنّه باب الجهاد.. معلوم ان الامتياز ليس بالباب وانّما هو في ما وراءه.

من هنا فإنّ الجهاد يأتي في الاهمية بعد الايمان بالله ورسوله: «فإنّ افضل ما توسل به المتوسلون الى الله سبحانه وتعالى، الايمان به وبرسوله، والجهاد في سبيله، فإنّه ذروة الاسلام وسنامه» ـ كما تقول الآية المباركة: ﴿**فالذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم أعظم درجةً عند الله، وأولئك هم الفائزون يبشرهم ربّهم برحمة منه ورضوان وجنات لهم فيها نعيم مقيم خالدين فيها ابداً انّ الله عنده اجر عظيم**﴾.

لقد كان اهل البيت السبّاقين في الايمان بالله ورسوله، كما كانوا الاوائل في الجهاد.. يدخلون سوح الوغى، ولمّا يبلغوا العشرين، ويعتبرون القتل لهم عادة، وكرامتهم من الله الشهادة.

فلقد خاض علي عليه السلام الجهاد في العشرينات من عمره، وبقي مجاهداً حتى سقط شهيداً في محراب عبادته وقد تجاوز الستين.. وخاض اولاده الجهاد، كأبيهم، مبكرين، فقد كان كل من الحسن والحسين والعبّاس ومحمد بن الحنفية يرافقون امير المؤمنين في معارك الاسلام الكبرى، وكان لهم دور كبير فيها.

هذا هو العبّاس يخوض القتال في معركة صفين، ويقارع الشجعان في معسكر العدو وهو ابن السابعة عشرة.

يقول المؤرخون: «في احد ايام معركة صفين خرج من معسكر امير المؤمنين شاب على وجهه نقاب، تعلوه الهيبة، وتظهر عليه علامات الشجاعة فهابه رجال العدو.. فندب معاوية لمجابهته واحداً من شجعان اصحابه يقال له «ابو الشعثاء» لكن الرجل ابى واستكبر وقال:

«يا معاوية ان اهل الشام يعدونني بألف فارس، فلا اخرج إليه، بل ارسل إليه احد اولادي».

وكان له سبعة من الاولاد، فأرسل احدهم، فتبارز مع صاحب النقاب، فصرعه صاحب النقاب، ثم أرسل الثاني ففعل به صاحب النقاب ما فعل بأخيه، ثم ارسل الثالث فالرابع، فالخامس، فالسادس، فالسابع، فقضى صاحب النقاب عليهم جميعاً..

فأساء ذلك أباهم واغضبه كثيراً، فقفز على فرسه، وجاء مسرعاً

الى صاحب النقاب ولم يكن يشك في انّه قادر على الانتقام لأولاده منه، اذ كان يعد نفسه بألف، فقال وهو يهاجمه:

«لقد قتلت كل اولادي، فوالله لأثكلنّ بك اباك وامّك»..

إلّا ان صاحب النقاب ألحقه بأولاده السبعة في جهنم، وكان المقاتلون من كلا المعسكرين ينظرون الى ما يجري في الساحة، وهم لا يعرفون من هو صاحب النقاب.. وعندما رجع الى معسكر امير المؤمنين وخلع نقابه، تبيّن انّه قمر بني هاشم العبّاس عليه السلام.

ولمّا انكشفت شخصيته هابه العدو، واخذت انباء شجاعته تسري كأنّها الريح، وهنا انتدب معاوية احد اقوى رجاله واسمه «كريب»، وكان قوي العضلات يأخذ الدرهم فيغمزه بإبهامه فتذهب كتابته، فنادى وهو يجول في الساحة بفرسه وسيفه الطويل بيمناه:

«ليخرج إليّ شجاعكم» ـ ويقصد صاحب النقاب ـ فخرج لمقاتلته اثنان من اصحاب الامام، ولكنه استطاع ان يقضي عليهما.. فأراد العبّاس ان يخرج لمقاتلته، إلّا ان الامام علي عليه السلام نهاه وأمره ان ينزل عن فرسه، وينزع ما كان عليه.. فلبس الامام ثياب ولده ونقابه وركب الفرس، وذلك لكيلا يجبن «كريب» عنه ويهرب عن مواجهته، فلما برز إليه امير المؤمنين، ذكّره الآخرة، وحذّره بأس الله وسخطه.

فقال كريب: «لقد قتلت بسيفي هذا كثيراً من امثالك.. دع عنك ما

تقول وحاربني».

ثم بادر الامام بضربة اتقاها الامام بالدرقة.. فضربه الامام بواحدة من ضرباته الموجعات على رأسه شقّه فيها نصفين، ثم رجع وطلب من ابنه محمد بن الحنفية ان يقف على جثته قائلاً له: «قف هنا فإنّ طالب ثأره يأتيك» فامتثل محمد امر ابيه، واذا بأحد ابناء عم كريب جاءه قائلاً:

«من قتل ابن عمي؟».

فقال محمد بن الحنفية: «انا مكانه». فتقاتلا ساعة، فقتله محمد وجاء غيره، فقتله محمد ايضاً وجاء ثالث فألحقه بأصحابه.

هكذا فإنّ اهل البيت كانوا يدخلون سوح الوغى في بدايات الشباب ويتحملون المسؤوليات الجسام وهم صغار، فلم يكن عندهم «تدرّج» في تحمل اعباء الرسالة، بحيث يتحملون اليوم جزءً منها، ويتحملون غداً جزءً آخر، فكما كانوا يؤدون الصلاة وهم صغار.. فإنّهم كانوا يجاهدون في سبيل الله ـ تعالى ـ وهم صغار ايضاً..

ولم يكن احد منهم ينتظر الظروف المؤاتية، فكل ظروف اهل البيت لم تكن مؤاتية، بالمعنى الذي يفهمه الناس. فهم كانوا دائماً يسيرون والمنايا تسير بهم ـ حسبما يقول الامام الحسين ـ.

كانوا رفقاء السيف من اجل الله تعالى..

واعداء الباطل من اجل الحق..

ولذلك كانت الظروف التي يمرون بها صعبة للغاية، ولم يكن فيها مجرد احتمال الموت، بل حقيقته. وكانوا يرون الجهاد انّما شرّع في الظروف الصعبة، وليس الظروف السهلة..

انّ من الخطأ ان يظن المرء ان الظروف يجب ان تكون مؤاتية حتى يخوض الجهاد في سبيل الله، وكأنّ الجهاد حفلة زواج، او رحلة سياحية، ولابدّ من الاخذ بعين الاعتبار فيها صعوبات الطريق، واوضاع الكواكب، والاحوال الجوية، وحركة الرياح..

انّ الجهاد هو اقتحام الموت من اجل الأخرة.. وكلما كان ظلام الظلم اشد، كلما كانت الحاجة الى لمعان السيف اكثر..

وكلما كان المجتمع اكثر انسياقاً مع الباطل، كلما كانت المسئولية على عاتق اولياء الله اكثر ثقلاً.. وعليهم خوض غمار الجهاد ابكر..

وهكذا فإنّ القتال لدى اهل البيت ليس هدفاً لنفسه، وانّما هو من اجل منع الافتتان عن الدين ﴿**ليهلك من هلك عن بينة وليحيى من حيّ عن بينة**﴾.

ان الجهاد ليس إلّا من اجل اقامة العدل، ودفع الجور والظلم، ﴿**وما لكم لاتقاتلون في سبيل الله والمستضعفين من الرجال والنساء والولدان**﴾. فالجهاد اذا كان من اجل تدعيم السلطان، او من اجل الحصول على الغنائم فهو بالحتم واليقين ليس جهاداً، ومن ثم فإنّ

اهل البيت بعيدون عنه، وهذا ما عناه الامام علي بقوله: «اللّهم انّك تعلم انه لم يكن الذي كان منّا تنافساً في سلطان، ولا التماس شيء من الحطام، ولكن ليأمن المظلومون من عبادك، ولتقام المعطلة من حدودك». فجهادهم هو نتيجة ايمانهم، وايمانهم هو نتيجة يقينهم، ويقينهم هو نتيجة معرفتهم.

هكذا فإنّ الايمان بالله تعالى كان هو مصدر كل مواقف اهل البيت، فالتقوى هو الاساس وهو عندهم الطريق والهدف.

ألم يقل الامام علي عليه السلام: «التقوى في الدنيا جُنّة وفي الآخرة طريق الى الجنة». وهي صفة متأصلة فيهم، كأنّهم يتوارثونها وهم في مراحل الطفولة، كابراً عن كابر.

انّ امتيازهم هو الايمان بالله الواحد الاحد، وعدم الشرك به في جميع مراحل حياتهم.

هذا هو العبّاس عليه السلام يضعه ابوه وهو طفل صغير فيقول له: «بني.. قل واحد».

فيقول العبّاس: «واحد».

فيقول له الامام: «قل اثنين».

فيمتنع العبّاس عن قول ذلك، فيصرّ عليه ابوه، فيقول العبّاس:

«يا أبه.. كيف اقول اثنين بلسان قلت فيه للتو واحد؟!»

انّه يؤمن بالواحد الاحد، ولا يرى في الكون إلّا آثار توحيده،

ولذلك فإنّ لسانه لايطاوعه في ان يقول: «اثنين»، وقد سبق ان قال: «واحد» للتو.

ان مثل هذا الطفل هو مفخرة لأبيه، ومثابة له.. وليس عجباً بعد ذلك ان يكون امير المؤمنين معجباً جداً بولده العبّاس، فيحمله على كتفه، ويقبّله على رؤوس الاشهاد، ويشيدَ بدوره في المستقبل.

ان حب علي للعبّاس في الحقيقة يكشف عن خصوصية معينة كان يتوسمها الامام في ولده هذا، فهو حب له جذور وابعاد.. فهو انّما يحبّه لما يتمتع به في روحه وجسمه ولما يحمل معه من صفات ابيه من طلعته البهية، وقدّه الرشيق، ووجهه المتلألىء، ولما يتمتع به من الجرأة والشجاعة، ايضاً لما كان يرى الامام له من الدور في المستقبل في الدفاع عن الحسين في عاشوراء.

لقد كان الامام على يحب الحسن والحسين حباً جماً، لا باعتبارهما من اولاده، بل باعتبارهما سبطي رسول الله، وكان حريصاً جداً على حياتهما، لأنّهما يحملان نور النبوة، وثقل الرسالة فهما كانا امانة رسول الله صلى الله عليه وآله لديه، ولذلك فإنّه عندما اسرع احدهما وهو بعد صغير الى موقع خطر قال الامام لمن حوله: «املكوا عنّي هذا الغلام لايهُدُّني، فإنّي انفس (أي أبخل) بهذين الحسن والحسين على الموت، لئلّا ينقطع بهما نسل رسول الله»..

وكان احياناً يرفع يده بالدعاء قائلاً: «اللّهم انّي استعديك على

قريش، فإنّهم اضمروا لرسولك ضروباً من الشر والغدر.. فعجزوا عنها، وحُلت بينهم وبينها، فكانت الوجبة بي، والدائرة عليّ.. اللّهم احفظ حسناً وحسيناً، ولاتمكّن فجرة قريش منهما ما دمت حياً، فإذا توفّيتني فأنت الرقيب عليهما، وأنت على كل شيء شهيد».

وكان الامام يعرف ببصيرته الثاقبة ان العبّاس سيكون له دور كبير في مواجهة «فجرة قريش» هؤلاء، عندما يحوطون بالحسين واهل بيته الطاهرين.

وكان يعلم ان ولده هذا سوف يفدي سبط رسول الله بنفسه بطريقة لامثيل لها، حيث تقطع اولاً يداه، ثم تمزّق عينه، ثم يثقب صدره بالسهم، ثم تفلق هامته بعمود الحديد. ولذلك فقد جاشت الاحزان بأمير المؤمنين عندما جاءه العبّاس وهو في حدود الثالثة من عمره، وقد كشف عن ذراعيه يريهما لأبيه ـ كعادة الاطفال في اظهار عضلات ايديهم ـ فإذا بالامام وكأنّه يرى يوم عاشوراء، وما يجري على تلك اليدين من قبل جند الطاغوت يزيد بن معاوية، فأغلق الامام عينيه على دمعتين:

دمعة على الحسين الشهيد.

ودمعة على يدي ابي الفضل الصغيرتين اللتين ستقطعان، فيما بعد، دفاعاً عن الحسين.

ولتلك البصيرة الثاقبة فإنّ عاطفة الامام علي عليه السلام تجاه العبّاس

كانت دائماً عاطفة فرحٍ به، يشوبه الحزن عليه، او عاطفة الحزن عليه، يشوبها الفرح به.

فلقد كانت ولادة العبّاس مناسبة فرحٍ كبير لأمه وأبيه، اذ ولد لهما طفل فيه كل الشمائل العلوية، وسمّاه الامام «العبّاس» ليكون عبوساً قمطريراً على الظالمين في كل ادوار حياته..

إلّا ان أمّ البنين عندما ناولت العبّاس لأول مرة لأمير المؤمنين وجدته يبكي في خفاء، بينما كانت تتوقع منه ان يضحك في وجهه، فأثار ذلك انتباهها، اذ لم تعهد من قبل صبياً بتلك الشمائل فلماذا يبكي أبوه؟ فألحّت على الامام ان تعرف السبب، فأخبرها امير المؤمنين بما سيجري على ولدها العبّاس، وانحنى الابوان يمطرانه بقبلات المحبة والحزن معاً.

لكن الامام لم يترك امّه أسيرة احزانها، فذكّرها بما اعده الله تعالى، لوليدها من الاجر، ولما له من المقام الرفيع والفضل يوم القيامة.

وهكذا.. فإنّ ولادة العبّاس كانت مناسبة فرح وحزن للامام علي عليه السلام، ولأمّه فاطمة الكلابية. تماماً كما كانت ولادة الحسين مناسبة فرح وحزن للنبي صلى الله عليه وآله ولأمّه فاطمة الزهراء، لمعرفة الوالدين بما يؤول إليه امر الوليد.

حقاً لقد تماثلت ولادة الحسين وولادة العبّاس، كما تماثلت

حياتهما، وتماثلت شمائلهما، وتماثلت مصائرهما ايضاً.

لقد استطاع العبّاس بجهده في العبادة، والعمل الصالح، ومجاهداته في الدفاع عن الحق، ان يلحق بالحسين، وهو سبط رسول الله، وريحانته وسيد شباب اهل الجنة.. فولدا متماثلين وعاشا متماثلين، وماتا متماثلين، وتحققت فيه امنية ابيه عندما اراد التزويج من امرأةٍ ولدتها الفحولة، لكي تنجب له ولداً، فيه كل الفحولات والبطولات.

ان امير المؤمنين عليه السلام كان يريد توأماً للحسين، وان كان من ام اخرى، فكانت ولادة الحسين في الثالث من شعبان، وولادة العبّاس في الرابع منه، وان بفارق ثلاث وعشرين عاماً ايذاناً بولادة التوأم.

فبعد استشهاد فاطمة الزهراء عليها السلام طلب الامام علي اخاه عقيلاً، وهو كما وصفه الصفدي، «احد الذين كان يتحاكم إليه ويوقف عند قوله في علم الانساب لكونه عالماً به وبأيام العرب، وكانت تبسط له طنفسة تطرح في مسجد رسول الله صلى الله عليه وآله يصلي عليها ويجتمع إليه الناس لمعرفة الانساب وأيام العرب واخبارهم، مع ما له من السرعة في الجواب والمراجعة في القول».. طلب الامام أخاه هذا، وقال له:

«انظر لي امرأة قد ولدتها الفحولة من العرب، لأتزوجها، فتلد لي غلاماً فارساً».

انّه يريد امرأة تلد له فارساً، بكل ما في الفروسية من معاني

الشجاعة، والبطولة، والكرم، والحماية والايـثار، فـعين عـلي عليه السلام كانت تبحث عن العبّاس، تماماً كما يبحث من يريد زرع الحـديقة فينظر الى البعيد، ويتخيل ثمار اشجاره، كذلك كان الامام علي عليه السلام يبحث في زواجه الجديد عن ثمرته.

لقد كان الامر من قبل الامام مضموناً، ولكن ماذا عـن الطـرف الآخر؟.

لاشك ان لكل بذرة قرارها العميق، والامام كان يـريد لبـذرته قراراً عميقاً سليماً، لكي يرث المولود الجديد النبل من طرفيه.

كان يريد صفات الفروسية في وليده الجديد في عمق الطـبيعة، وليس خارجاً عنها.

كان يريد بطلاً يحمل في ما بعد ثقل عاشوراء، بكل بـطولاتها، ومصائبها، ومآسيها، ومواقفها الصعبة.

كان يريد مولوداً لايخضع لإغراءات الحياة، ولا يستسلم للتهديد بالموت، كان يريده في رئاسة اصحاب الحسين، وليس مجرد واحدٍ منهم..

كان يريد مـن يـحافظ عـلى الامـانة التـي عـرضها الله عـلى السماوات والارض والجبال، فأبين ان يحملنها واشفقن منها..

كان يريد مولوداً نقياً صافياً، يأخذ النبل مـجراه فـي دمـه مـن الاصول، من غير ان يتسرب إليه شيء من صفات السوء.

كان يعمل بوصية رسول الله ﷺ القائلة: «اختاروا لنطفكم فإنّ العرق دسّاس». وكان يحذر ممّا حذّر منه رسول الله ﷺ: «إيّاكم وخضراء الدمن». وحينما سُأل: «ما الخضراء الدمن؟» قال: «المرأة الحسناء في منبت السوء».

ان الامام في الزواج من امّ العبّاس لايطلب امرأةً ذات جمال، ولايطلب امرأةً تكتمل فيها صفات الانوثة.. وانّما يطلب امرأةً ولدتها الفحولة من العرب.. كان يريد نقاء الاصل لكي يضمن الاصالة في مولوده. ولم يكن نقاء الاصل الذي يطلبه امراً مادياً يرتبط بالدم ـ كما يفعل العنصريون في التاريخ ـ بل كان النقاء الذي يطلبه هو نقاء الروح.

كان يريد مولوداً يرث مجد البسالة من أمّه ومن أبيه معاً.. وبصراحة فإنّ علياً كان ينتظر من زواجه الجديد «العبّاس» شخصياً، ولاغير.

وقد اشار إليه عقيل بأن يتزوّج بفاطمة بنت حزام بن خالد بن ربيعة وقال: «تزّوج بها ليس في العرب اشجع من آبائها».

وهكذا فإنّ العبّاس كان اجلى ثمرة، لأفضل شجرة.

وقد كانت الفحولة من ابرز صفاته:

فحولة مواجهة الشيطان في النفس.

وفحولة مواجهة جيوش الكفر في ساحة المواجهة.

وفحولة الايثار، والعطاء، والتضحية، والوفاء، وكل الفضائل بلا استثناء.

ومنذ الصغر كان له امتيازات الهاشميين في الصفات الجسدية والنفسية معاً.

كان قمراً في وجهه المتلألىء، وكان وسيماً جميلاً طويلاً ـ كما يذكر المؤرخون ـ حتى أن رأسه الشريف الذي قطعه الاعداء فيما بعد، كان يتلألأ وهو على الاسنة كأنّه القمر، فقد ذكر سبط بن الجوزي في «تذكرة الخواص» انّه «لما أُتي بالرؤوس الى الكوفة، إذا بفارسٍ قد علّق في لبب فرسه رأس غلام كأنّه القمر ليلة تمامه وكماله، ولما سأله الناس: «رأس من هذا؟»

قال: «رأس العبّاس عن علي».

وقد تلقى العبّاس تربيته على يدي افضل الخلق بعد رسول الله ، وهو ابوه علي بن ابي طالب وبقي معه يرافقه في مواقفه وفي حروبه، كما كان يتعلم منه تململه السليم من خوف الله، في جوف الليل ويسمع أنينه، ولذلك فقد اصبح من علماء اهل البيت عليهم السلام حتى لقد وصفه بقولهم المؤرخون «العبّاس من اكابر وافاضل فقهاء اهل البيت».

امّا الشجاعة فقد كانت من ابرز صفاته، حيث كان يمتلك كل انواعها.

وكما كان علي معجزة رسول الله، فقد كان العبّاس معجزة علي عليه السلام، وكما تكرر النبي صلى الله عليه وآله في علي وفي سبطيه، فقد تكرر علي في العبّاس.

كانت فيه روح علي، وايمانه، ونبله، وصدقه، وكرمه، وعطاؤه، وطاعته، وشجاعته، واخلاصه، وايثاره، ودفاعه عن المظلوم ومواجهته للظالم.

وإذا كان علي قد انتدب لينام في فراش رسول الله ليلة الهجرة، فقبل ذلك برحابة صدر، مع احتمال ان يُقتل دون رسول الله، فإنّ العبّاس قد انتدبه القدر ليدافع عن ابن بنت رسول الله في يوم عاشوراء، ليس مع احتمال ان يقتل دون الحسين، بل مع يقينه، فقد فداه بنفسه فكان نعم الأخ المواسي لأخيه، ونعم الصديق والرفيق.. رافقه في المدينة، وكان معه في الكوفةو وهاجر معه الى مكة، وخرج الى كربلاء.

ونال شرف الشهادة دونه..

لقد فتح عينه في عين ولي الله..

واغلقها في عين ولي الله..

وعاش حياته مع اولياء الله..

فصار هو ايضاً واحداً من اولياء الله..

❊ ❊ ❊

لقد مثّل كل الفضائل، فتمثلت كل الفضائل فيه..

وزادت في القيم، قيمة جديدة اسمها:

«العبّاس»

«الفهـرس»

براعة الاستهلال ٥
العبّاس.. شهيد القيم ١٣
العبّاس.. رجل المهمات الأصعب ٣١
العبّاس.. كل شيء في خدمة الرسالة ٤٩
كربلاء.. ساحة المواجهة بين الحق والباطل ٦٧
كربلاء.. ملحمة التاريخ الغريبة ٨٩
العبّاس.. قمة في التضحية والايثار والوفاء .. ١١٩

مكتبة الروضة الحيدرية
الرقم: ٢٤٤٧٥
التاريخ: ٢٤/٦/٢٠١٠

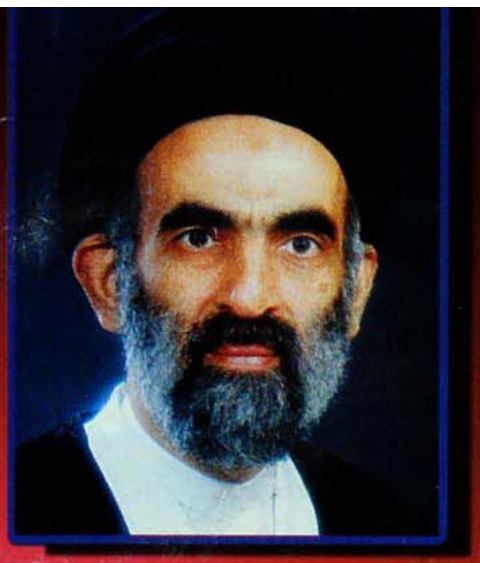

• كان العباس للحسين ..
كما كان علي لرسول الله:
الأول في الإستجابة له، الآخر في الدفاع عنه،
والملتزم أبدا بركابه

• اتدرون كيف اصبح العباس (عباساً)؟
لقد اختار الجنة على الجور،
والسيف على الحيف،
والسلة على الذلة،
والصبر على النصر،
ومرارة الموت على حلاوة الحياة ..

دار الهادي للطباعة والنشر
www.al-hodaonline.com